الهلاك

دار خيال للنشر والترجمة ©
تجزئة 53 قطعة. رقم 27. بليمور
برج بوعريريج – الجزائر–
0668779826
Khayaleditions@gmail.com
ردمك : 978-9931-06-052-9
الإيداع القانوني : السداسي الأول 2020.

خربوش بلال

الهلاك

رواية

الإهداء

أهديها لهؤلاء الذين أبدعوا في جعلنا أحرارا في كل لحظة معهم.

للذين استطعنا معهم أن نكتشف الكثير عنا.

للذين كانت خطوة البدء معهم تماما كما نريد، والوداع كما أردنا.

لهؤلاء الأشخاص اللينين الحافظين للود والصادقين لأبعد حد..

شكرا لكم حاضرين والسلام عليكم حيثما كانت خطاكم.

بداية السقوط

استيقظ عامر كعادته على نغمات منبه هاتفه المزعجة، إنه صباح ممل آخر ولا يسعه أن يفتح عينيه حتى، لكن لابد له من العمل، نهض متثاقلا جهز نفسه واغتسل بسرعة، لم يكلف نفسه حتى لإلقاء تحية على أمه التي تجهز له قهوته، ما إن خرج من البيت ووضع خطواته المعدودة حتى رن هاتفه، أخرجه ليرى من يكون المتصل بهذا الوقت، حين رأى اسم المتصل دُهش من ذلك، إنه صديقه سعيد، في البداية لم يُرِد الرد لكي لا يزداد مزاجه سوءًا، لأن سعيد ليس من عادته أن يتصل بهذا الوقت، لذلك فعلى الأرجح حدث شيء سيء، ثم إنه خشي أن يتفوه بكلام غير مناسب بسبب مزاجه السيء، لكنه لم يتوقف عن إعادة الاتصال فقرر أن يرد، ما إن رد حتى وصلته كلماته وهو يقول بصوت مرتفع:

– عامر أين أنت؟

– نعم أهلا.. أنا قرب البيت ماذا يجري؟ ولم تتحدث بهذه الطريقة؟

– تعال لبيتي أحتاجك لقد حدثت أمور كثيرة وهناك أمر طارئ...

– أخبرني الآن ماذا يحدث؟ وما بك؟

– تعال أرجوك لا أستطيع الشرح.

وانقطع الخط...

كان عامر يعلم أن شيئا سيئا قد حدث وظل يفكر فيما جرى مع صديقه، لم يكن يشأ الذهاب، لكنه قرر أن يشبع فضوله ويعرف بدلا من الذهاب إلى العمل، وقد وجدها فرصة وسببا كافيا كي لا يذهب لعمله هذا اليوم، ولأن سعيد احتاجه وكان صوته مختلفا ولا يتصل به في الصباح بهذا الشكل، أه نعم إنه سعيد، ذلك الرجل الفظ وهو في منتصف الثلاثينيات، تعلو سمرته ملامح خشنة تبدو أسوأ بتلك الآثار التي علمت على خده الأيسر وبينت شجاراته المستمرة واشتباكاته العنيفة...

وصل عامر أخيرا لبيت سعيد بعد أن أمضى دقائقا سيرا على الأقدام، بيت قديم تركه أهله ورحلوا لمدينة أخرى، لكنه لم يتخل عنه رغم أنه بيت ذو غرف ضيقة ولا يوجد به شيء يصلح، سوى سريره وموقد قد اشتراه وبعض الأدوات والأواني،

وما إن طرق عامر الباب حتى فتحه سعيد بسرعة، حين رآه اندهش من حالته، لقد كان وجهه شاحبا ومتعرقا، وكأنه في مأزق أو هارب من شيء ما، لم يكن على طبيعته، ذلك المازح المزعج الثرثار، وتحدث قائلا:

- تفضل بالدخول واذهب إلى الغرفة هناك.

أومأ عامر برأسه واتجه للغرفة، جلس وهو يحاول التفكير بما جرى وسأله حين رآه قادما نحوه:

- ماذا حدث؟

جلس سعيد وتنهد بعمق وركز نظره على عامر وهو يقول:

– عامر.. آسف لاتصالي بك في هذا الوقت، أعلم أنه وقت غير مناسب، لكن حدث أمر مهم ولابد من أن تعرفه.

صمت لبرهة وأكمل...

– لقد اتصل بي ماجد وهو يطلب أن أرسل له مبلغا ماليا كبيرا وأنه بحاجة له وإلا سيفضح أمرنا بأننا تاجرا مخدرات.

هنا تغيرت ملامح عامر ليبدو أكثر عصيبة وقال محدثا سعيد:

– ماجد.. ماجد الذي كنا نعمل معه.

تنهد سعيد من جديد وأكمل قائلا:

– نعم هو، وأعلم أنك لا تملك مالا وأنا مثلك... قاطعه عامر:

– لماذا؟ لماذا يطلب منا هذا؟ ولماذا أنا وأنت بالضبط؟ وضحك بلا مبالاة وأردف قائلا:

– وأنت من الآن تفكر بإعطائه المال.

– حسب ما أعلم فإن الكثير ممن يعملون معه تركوه وقد أفلس ولم يتبق إلا كلينا وربما فعل هذا لنعود له.

ضحك عامر من جديد وهو يقول:

– نعود له، إنه يحلم، إذن دعه يفضحنا لا نملك المال ويمكننا أن نمضي أشهرا بالسجن.

نظر به سعيد متعجبا وهو يقول:

– سأصفعك، ألا تعي خطورة الأمر؟ لو كان هذا هو الحل هل ترى أنني غبي لأتصل بك صباحا وأطلب منك الحضور؟

عدل عامر من جلسته وبدت ملامحه أكثر جدية وقال:

– حسنا، تعلم أن أفكاري غبية لكن ليس لنا حل سوى أن نرجع له ونعمل معه إن كان هذا ما يريده.

– وهل نحن ضعفاء لهذه الدرجة لنفعل له مايريد، انتظر، سنفكر.

قام عامر من مكانه وهو يضع يديه بجيوبه ويقول:

– ليس هناك حل سوى الرجوع له أو السجن.

زاد انزعاج سعيد وقام هو الآخر، ركز نظره بعامر وكأنه في تحدٍ معه وحدثه بصوت أكثر خشونة قائلا:

– دعك من أفكارك، السجن لن ندخله، ستترك أمك وحدها، وستكون سمعتك سيئة أمام الكل، وأما عن الرجوع له لا تنسى أنه كان السبب في الحادث الذي أدى لموت والدك وأخيك.

توقف عامر بمكانه بلا حراك لبرهة، ظن سعيد أن كلامه أثر به، وأنه قد انتصر عليه أخيرا، وهو يفكر بالأمر، ولكنه كان يتألم لهذه الكلمات، لقد كانت كلماته قاسية جدا، لطالما حاول تناسي الأمر، ولطالما تجنب الحديث عن ماجد، لأنه يدرك أنه سيسمع هذه الكلمات، ولكنه محق، لقد كان هو السبب في الحادث الذي أدى لموت والده وأخيه، إنه لن ينسى ذلك اليوم حين قام ماجد بسياقة شاحنته بتهور واصطدم بسيارة أبيه وجعله قطعة فحم هو وأخوه بعد أن انفجرت السيارة، منتقما من عامر لرميه للمخدرات وتخليه عن المجموعة.

بعد أن وضع سعيد يده على كتف عامر وضغط عليه ببعض القوة قائلا:

- عامر... هل أنت بخير؟

لم يستدر نحوه عامر وأومأ برأسه إيجابا، وخرج من دوامة أفكاره تلك التي تشعل نار قلبه وتدفعه دوما للغضب، ولرغبة شديدة بالانتقام، لكن الأمر ليس بيده، جذبه سعيد من معطفه بقوة أكثر، استدار نحوه أخيرا، لمح تغير ملامحه، فأدرك أنه كان مخطأ لأنه تفوه بهذا، وعلم تماما سبب ذلك التغير، حاول تلطيف الجو بمزاحه فقال:

- سنسرق بعض الأموال ونحل المشكلة.

وها قد حقق مراده، وتمكن من رؤية ابتسامة على وجهه، ابتسامة ليست لمزحته، إنما ابتسامة لم يتمكن سعيد بنفسه من فهمها، حاول تلطيف الجو أكثر وحاول جاهدا إبقاء عامر معه لأنه يعلم أنه لن يطيل أكثر من هذا، نظرا لمزاجه السيء والذي قد ازداد، أسرع نحو المطبخ لإعداد القهوة وتركه هناك بالغرفة مع أفكاره، ثم إنه فعل ذلك متعمدا، ظنا منه أن رشفات من القهوة ستحسنه، وأن بقاءه وحده سيجعله يجد شيئا وظل سعيد هو الآخر يفكر في إيجاد حل ما لخروجهما من هذا المأزق، لكن دون جدوى فقد كانت كل الأفكار سلبية وتشكل خطرا عليهما، وهو يسعى جاهدا لتخليص عامر من ماجد لأنه يعلم أن صديقه يسعى للانتقام منه وسيقتله إن وجد طريقة توصله له، كما يعلم أن ماجد لا يمزح وأنه يسعى حقا لفضحهما، إنه

شخص عنيد وذو فهم ثقيل، كما أنه لا يتقبل أي مناقشات أو أي توسل أو ترجي، إنه طماع ولا يقبل سوى أن تملأ جيوبه بالأموال.

عاد سعيد للغرفة التي يتواجد بها عامر محضرا معه فِنجانين من القهوة لعلهما يعدلان مزاجيهما، وجده كما كان قبل خروجه، واضعا يده على خده وغارقا بأفكاره، أصدر صوتا لينتبه له عامر، لكنه بقي على نفس جلسته ولم يحرك ساكنا، وضع سعيد فنجان القهوة أمامه حيث يجلس وجلس بجانبه، وكعادته قال ممازحا:

- أين عامر الذي يكره قهوتي؟ تذوق الآن، لقد وضعت لها عسلا بدل السكر كما تقول.

وأخيرا ابتسم عامر ورفع رأسه نحو سعيد، اقترب منه واحتضنه وهو يقول:

- سعيد يا صديقي.. أشكرك على اتصالك وعلى إخباري، الآن سأذهب لعملي وحين خروجي مساءً سأتصل بك ونلتقي إن شئت وهَمَ بالخروج.

لكن سعيد لم تكن هذه رغبته، لم يكن يود من عامر أن يذهب بهذه السرعة، لقد كان يسعى لإبقائه أكثر وكان أكثر ما يخشاه أن يذهب لماجد ويفعل شيئا، وتَحدُث مشاكل ومصائب أسوء، إنه لا يتحكم بغضبه، فكر قليلا ثم قال:

- لكن انتظر ماذا لو وجدت حلا يجب أن نفكر معا إن مصيرنا مشترك وكما ترى فأنا أخشى عليك أكثر من نفسي.

ظن أن عامر سيستجيب لما قاله وأنه سيبقى لكنه لم يسمع الرد الذي يريح قلبه والذي كان يوده، توقف عامر أمام الباب، واستدار نحو سعيد وقال:

– أعلم أنك قلق لأجلي، وستظن أنني سأذهب له لكنني أنا أيضا أفكر بحل ولن أتهور هذه المرة.

صمت لبرهة وأكمل مداعبا:

– وقهوتك اليوم جيدة إن لها مذاق العسل حقا، وأكمل مغادرا.

بؤرة الضياع

بعد أن أغلقت الباب وهممت بالمغادرة وابتعدت قليلا، سمعته يُفتح من جديد وسعيد ينادي من هناك ويقول:

– إياك وفعل شيء متهور يا عامر وعد إلى هنا مباشرة بعد إنهاء عملك.

يقول هذا وكأنني ولد صغير لا أعرف ما أفعله، لكنه حقا يخشى علي، فطمأنته قائلا:

– لا تقلق أعلم ما أفعل.

أكملت طريقي، لم أكن أرغب بالذهاب للعمل حقا إنني متعب ومزاجي سيء للغاية، لذلك قررت أن أعود للبيت.

وأنا في طريقي للبيت مشتت غير مبال بما يجري من حولي، ألمح أناسا يتدافعون نحو الملعب لمشاهدة مباراة مهمة، وآخرون يمضون هناك نحو السوق لاقتناء ملابس تقيهم برد الشتاء والطريق لا يخلو من السيارات والناس، وضوضاء تعج بالمكان، وسط كل هذا سمعت رنين هاتفي، أخرجته بسرعة، تمنيت أن يكون سعيد، كنت أود ذلك لعله يحاول أن يطلب مني الرجوع إليه، إنني متردد في الذهاب للبيت، وهذا التفكير سيجعلني متهورا، ما إن رأيت شاشة الهاتف حتى استغربت من المتصل، إنه رقم غير معروف، ربما يريد سعيد مداعبتي، أو لعله طلب من صديقه أن يتصل بي ليضحكني، أو ليخفف عني، ثم فجأة

تملكني إحساس غريب، لابد من أنه هو، نعم لابد أن سعيد اتصل به وأخبره شيئا ما، شيئا أجهله...

كنت مترددا في الإجابة، ومتأكدا من أنه ماجد، وليس هناك غيره، وأنا أفكر في الرد أو الرفض وإذا برنين الهاتف ينقطع صوته، ولم أسمع شيئا من حينها لقد تركني ذاك الاتصال أفكر وأغوص في بحر الأفكار أكثر، محدثا نفسي:

- من يكون ذلك؟ هل يكون ماجد؟ ولماذا اتصل؟ وماذا قال له سعيد؟

أه نعم لم أفكر في هذا، حينها فقط انتبهت وأدركت أنني يجب أن أتصل بسعيد لأسأله، لابد أنه من اتصل به، أو لعله يعلم شيئا، اتصلت به وما إن رن هاتفه لثواني حتى رد قائلا:

- مرحبا عامر، هل أنت بخير؟ لماذا تتصل هل وجدت حلا؟ أو هل حصل معك شيء.

لم يترك لي فرصة حتى لأتكلم أو أسأله، فقلت:

- أهلا بك سعيد أنا بخير، فقط أريد أن أسألك هل اتصلت بماجد؟ أو اتصل بك.

بقي صامتا لمدة وكأنه يفكر، نعم لابد من أنه اتصل به أو يكون ماجد من اتصل وأخبره شيئا، وساوسي تخبرني بهذا، أو ربما التعب والمزاج من يفعلان هذا بي، ثم أضفت قائلا:

- إن اتصل بك أو حدث شيء فلا تخفي عني، لأنني سأعلم واهتم بنفسك سأكون عندك مساءً وقطعت الخط.

وصلت للبيت، كانت المفاتيح معي، لم أشأ أن أزعج أمي وأنهضها من مكانها قرب المدفأة فالجو بارد بالخارج، وتفاديا لأسئلتها لماذا عدت؟ ولماذا لم تذهب للعمل؟ وهل حصل شيء...؟

فتحت الباب بهدوء تام، كي لا أصدر صوتا ونجحت في ذلك، دخلت ببطئ، كان باب الغرفة التي تنام بها أمي مفتوحا ألقيت نظرة سريعة وكان المنظر الذي سأراه كما توقعته، أن أجد أمي نائمة بسريرها والمدفأة ملتهبة بلهب خافت من هناك، إنها تتعب نفسها من أجلي لإحضار فطور مناسب لي ولتأكدها من أنني ألبس ملابسا صوفية تقيني من هذا البرد، إنها لا تزال تخاف علي من المرض حتى أشعر أنني لازلت طفلها، فما أطيب قلوب الأمهات.

دخلت غرفتي التي كانت تشبه غرف الموتى لشدة برودتها حيث أنه لا توجد بها مدفأة حتى، تمددت بسريري ودخلت في عالم أفكاري من جديد ولم أفلح في إيجاد حل مناسب سوى بالرجوع لأعمالي السابقة، تاجر مخدرات...

لقد كنت صغيرا حين دخلت في هذا العالم، أذكر حين كنت أخرج كل مساء مع سعيد ونتجول في شوارع المدينة، وحين كنا نذهب لبستان "العم سالم" لسرقة بعض التفاح والمشمش،كانت طفولتنا حقا ممتعة وبريئة ومليئة بالشغب والجنون، إلى أن جاء ذاك اليوم، كنت أنا وسعيد بمتوسطتنا حين دقت الساعة العاشرة لنخرج للاستراحة، ذهبنا لدورة المياه

كعادتنا، ووجدنا جماعة المدخنين هناك في تلك الزاوية يشعلون سجائرهم ويستمتعون بوقتهم، هذا ما بدا لي حين كنت أراهم يضحكون وسعداء طوال الوقت، لقد بثوا بي الرغبة حقا في أن أجرب تلك السجائر، لقد كنت غبيا وكنت ضعيفا مستسلما لرغباتي، بعد أن عدت للبيت في ذلك اليوم خرجت مساءً كعادتي أنا وسعيد وجيوبي مليئة بالأوراق التي مزقتها من أجل أن أطويها على شكل سجائر، ولأنني لا أملك المال الكافي لشراء أي شيء سرقت ولاعة المطبخ، ابتعدنا عن الحي الذي نقطن به، لقد كان حينها بيت سعيد القديم لا يبعد عن بيتنا سوى دقائق قليلة لأصله، ذهبنا لمكان بعيد حيث لا يرانا فيه أحد، لقد كنا قرب غابة، كانت خارج مدينتنا، أمسكت سعيد من كتفيه مركزا نظري في عينيه قائلا:

- سعيد، أريد أن أجرب شيئا وأنت ستجربه معي ولكن لن تخبر أحدا وسيكون هذا سرا هل تعدني؟

بقي سعيد مندهشا ومازاد دهشته رؤيته للولاعة التي سقطت من جيبي الممزق، لابد أنه فهم ما أريده، أو لعله فكر في أني أريد حرق حقل أو ربما إشعال نار لأننا نفعل ذلك عادة، أومأ برأسه وأردف قائلا:

- أعدك.

حينها أخرجت من جيبي الأوراق التي أحضرتها وطويتها بشكل أسطواني على شكل سجائر، نظرت بسرعة خاطفة لسعيد فوجدته كما توقعت لقد زادت دهشته، فهمت ذلك من

ملامح وجهه، أو ربما كان منصدما مما يرى، أو لعله كان يفكر مثلي فأفكارنا متشابهة دوما، فقلت مؤكدا:

- سنجربه هذه المرة فحسب لا تقلق.

حتى أجده يمسك بيدي بقوة، ويقول:

- عامر.. لن نفعل هذا أرجوك إنني أريد فعل هذا لكننا سنكتشف وأنا خائف.

ذهلت لكلام سعيد وقلت مهدئا:

- لا تقلق بعد أن نفعلها سنذهب لبستان "العم سالم" ونأكل بعض التفاح لنتخلص من الرائحة، أليس هذا ما تقصده.

ابتعد قليلا وتنهد وأضاف قائلا:

- لست خائفا من هذا، لقد شاهدت بالتلفاز يوما أن كل من يدخن سيصبح عاشقا له وسيحبه، لا أذكر تلك الكلمة لكنهم يقصدون هذا، ولن يستطيع التخلي عنه، ثم إنه سيجعلك تمرض، ثم هل سيكون طعم هذه الأوراق مثل تلك الحقيقية، لي بعض الدنانير هنا وإن أردت سنشتري واحدا ونجربه ما رأيك؟

كانت كلماته كهدية لي شرعت بسرعة في تمزيق الأوراق وحرقها وأمسكت بيده وقلت:

- هيا.. لنحضر واحدا ونرجع إلى هنا ونرى.

لقد كانت تجربة مخيفة ومدهشة، كنا خائفين من ردة فعل البائع وكعادته سيسألنا لمن هذه السجائر لأننا اعتدنا على

شرائها حينما يطلب منا كبار السن ذلك لكنه ولحسن الحظ لم يسأل هذه المرة، رجعنا بسرعة من حيث أتينا وشرعنا في إشعال السيجارة وبدأنا بتدخينها، لقد كان الأمر جنونيا، كان طعمها مرا ورائحتها مقززة لكن بدت وكأنها تشعرنا بالراحة أو لأنها المرة الأولى التي جربناها بدت لنا هكذا.

لم تكن تلك المرة الأولى التي نفعلها لقد كان الأمر مسليا وكنا ندخن بالأوراق وما إن تسقط بأيدينا دنانير قليلة نشتري بها تلك السجائر، لقد زاد إدماننا عليها مع مرور الوقت أكثر واتخذنا من جماعة المدخنين بدورة المياه رفقاء لنا وتقربنا منهم من أجل رشفات قليلة، كان من بين تلك الجماعة فتى يدعى "فارس" لقد كان يبدو أنه رئيسهم أو من يحكمهم، يبدو أنه من يتصرف بهم ويأمرهم كما يشاء، كان بيتهم قرب المتوسطة، ذات يوم طلب منا أنا وسعيد إن كنا نريد البقاء معهم فيجب أن نطبق قوانين مجموعته، حدث ذلك يوم الخميس حين طلب منا أن نكون قرب المتوسطة بتمام الساعة التاسعة، كنت أنا وسعيد مترددين وخائفين من حصول شيء ما وكيف سنقنع والدينا بالخروج في مثل ذلك الوقت من الليل إنه فصل الشتاء بلياليه الباردة والمظلمة.

ابتكرنا خطة أنا وسعيد واتفقنا عليها من أجل الخروج من البيت، كنت أنام أنا وأخي "سامي" الذي يصغرني بخمس سنوات لقد كان يغط في نوم عميق حينها، أقفلت باب الغرفة بإحكام تسللت نحو النافذة وشرعت بفتحها ببطء وبحذر شديد

كي لا يسمعني أخي أو أمي وأبي، تمكنت من فتحها أخيرا ورميت بنفسي للخارج لقد تلطخت بالطين، كانت الأمطار تهطل منذ الصباح والجو بارد بشدة، كان معطفي بالغرفة التي ينام بها أبي وأمي لذلك فضلت الخروج بقميصي ذو الأكمام، بعدها تأكدت من أن النافذة مفتوحة، أغلقتها وتركت جزءا منها مفتوحا لكي أدخل منها فيما بعد ولكي لا يتسلل البرد لأخي سامي ويستيقظ ويكتشف أمري أو تنتابه نوبة خوف وهلع ويخبر أمي وأبي ويفضح أمري.

وجدت سعيد في المكان المتفق عليه، هناك قرب محطة الحافلات، كانت الأمطار تزداد غزارة مما جعلنا نصل للمتوسطة في دقائق قليلة، لم نجد فارس وجماعته هناك، انتابنا الخوف وظننا أنه يكذب أو ربما نصب لنا فخا، خشينا أن ننادي عليه ويسمعنا أحد ما ويفعل بنا شيئا فالذين يخرجون بهذا الوقت مخيفون للغاية، ولم نكن ندري ما هدف فارس لاختياره هذا الوقت بالضبط، وما هي هذه القوانين.

بقينا هناك لدقائق ولمحنا هناك من بعيد شخصا ما قادما، في البداية ارتاحت قلوبنا وظننا أنه فارس، لكنه كلما اقترب بدا لنا أكثر ضخامة، لم نكن ندري ما نفعله سوى الانتظار، انتظار ما سيحدث وما سيفعل بنا، ظهر الشخص أخيرا كان ذاك من رفاق فارس لكنه كان غريب الملامح هذه المرة، كان مكشر الوجه ويبدو أن شيئا سيئا قد حصل، لم يتحدث بشيء سوى "اتبعاني"، كنا وراءه وكنت أفكر بالهرب لكن أين سأذهب المنزل

يبعد بمئات الأمتار ثم ماذا لو أمسكني ماذا سيفعل بي ثم إن سعيدا وحده ولن أتركه، ولا شيء يدعو للهرب كنت خائفا فحسب، أكملنا سيرنا حتى تحدث لنا صديق فارس ذاك قائلا:

- ادخلا.

نظرت لأجد هناك منزلا قصديريا مشكلا من بعض الأخشاب ومغطى بأغطية قماشية رثة وبعض اللوائح المعدنية وكان ذلك خلف جدار المتوسطة الخارجي، دخلت أنا وسعيد لنجد هناك فارسا ورفاقه، لم يرحبوا بنا وكانت وجوههم توحي أن هناك شيئا سيئا قد حصل فعلا، تسرب بداخلي الخوف أكثر وكنت متأكدا بأن أمرا خطرا سيحصل لي، كان كل ما قاله فارس:

- أمسكا هذه الحقائب واخرجا وانتظرا هناك ستأتي سيارة سوداء وتوصلكما إلى البيت المنشود، سلماه الحقائب وستستلمان الأموال، عودا إلى هنا سلماني الأموال وستأخذان مقابل ذلك عشر سجائر، هذه هي قوانين المجموعة ويجب أن تفعلا هذا لشهر، ولكما عشر سجائر كل يوم.

لقد كنت مذعورا حينها، مذعورا من أمر فارس كيف يمكنه أن يخاطر بنا من أجل عشر سجائر، وخائفا من صاحب السيارة ومن صاحب البيت ماذا لو فعل بنا شيئا مريبا؟ ماذا لو اختطفنا أو قتلنا؟ ومتحمسا في نفس الوقت للمغامرة ولأخذ عشرة سجائر وإعادة ذلك الشعور وتملكني الفضول مما يوجد بهذه الحقائب أهي كتب؟ أم وثائق خاصة؟ أم بضاعة

ومأكولات ما؟، لا يهم الأمر بقدر ما يهم أن أسلم الحقائب وأستلم كنزي "السجائر".

كانت لي أسئلة كثيرة أطرحها على فارس ولأن مزاجه سيء لم أشأ إزعاجه وفضلت أن أسأله فيما بعد، كان سعيد هو الآخر صامتا طوال الوقت ولم يتفوه بحرف لعله يجري حديثا مع نفسه مثلي، استلمنا الحقائب، كانت ثلاث حقائب فضلت أن آخذ اثنتين وأترك واحدة لسعيد، وكانت تبدو خفيفة ولم نكن ندري ما بداخلها بالضبط.

انتظرنا هناك قرب عمود الإنارة كما أخبرنا فارس، وما هي إلا لحظات حتى ظهرت تلك السيارة السوداء، سيارة فخمة ذات طلاء أسود لامع، لم أكن أدري أن فارس صاحب الملابس البسيطة والوجه الشاحب بكل هذا الثراء.

إنني متشوق لركوبها حقا فأنا لا أركب مثل هذه السيارات إلا في حفلات الزفاف، اقتربت السيارة وتوقفت أمامنا، فتح الباب الخلفي وتحدث لنا السائق قائلا:

- اصعدا.

ركبنا وبدأ السائق بالسير خرجنا من مدينتنا وكان الظلام يسود تلك المناطق المحيطة بالمدينة حتى إنها لم تكن مزودة بأعمدة الإنارة، وما إن ابتعدنا أكثر حتى أطفأ السائق مصابيح تلك السيارة طالبا منا الانحناء للأسفل، الأمر مخيف، السيارة تتحرك بسرعة جنونية، والطريق مبلل والأمطار تهطل بغزارة أكثر

والظلام دامس والمخيف أكثر أنه طلب منا الانحناء كأن هجوما سينفذ.

بقينا على تلك الحالة للحظات، حتى خفف السائق من سرعته وتوقف، أشعل مصابيح سيارته من جديد وتحدث لنا دون أن يستدير لنا قائلا:

- ذاك البيت المقابل هناك أسرعا.

نزلنا بسرعة كما قال لنا وكنا مترددين، خشينا أن يخدعنا ويذهب، ذهبنا ركضا وصلنا للبيت لقد كان فخما وكبيرا جدا يبدو كالبيوت التي نراها بالتلفاز، طرقنا دقات سريعة على الباب، لم يفتح بعد، ازداد طرقنا للباب أكثر فالأمطار تبللنا والحقائب أيضا تتبلل وقد تتبلل معها الوثائق التي بها، هذا ما كنا نفكر به حتى سمعنا الباب يصدر صوتا وفتح أخيرا، كان هناك رجل ضخم ذو عضلات مفتولة وبشرة سمراء بقي ينظر بنا نظرة جعلتنا نرتعد خوفا، وما زاد خوفنا صوته الخشن، تحدث لنا قائلا:

- هل الحقائب معكما؟

أجبته مباشرة وبسرعة:

- نعم سيدي تفضل.

ظهرت على شفتيه ابتسامة عريضة ونزع منا الحقائب بعنف ومنحنا أموالا ورقية، إنه شيء جديد علي أنا وسعيد، فكلانا لم نضع بأيدينا من قبل أموالا ورقية بهذا الكم لشدة فقرنا، كثيرة لدرجة أننا لم نتمكن من عدها، رجعنا مسرعين للسيارة

واطمأنت قلوبنا حين وجدنا السيارة لا تزال بمكانها، فتح لنا السائق الباب صعدنا واتخذنا نفس طريق العودة وأطفأ المصابيح حين وصلنا لنقطة ما من الطريق وزاد سرعته وأوصلنا إلى نفس المكان الذي ركبنا منه، عدنا لمكاننا حيث فارس ومجموعته سلمناه الأموال وسلمنا السجائر ورجعنا للبيت، ومر كل شيء بسلام ليلتها.

في الغد أعدنا نفس ما فعلناه، الذهاب عند فارس بحدود التاسعة مساءً، استلام الحقائب والركوب مع صاحب السيارة السوداء وتسليم الحقائب للرجل الضخم مقابل تلك الأموال والعودة لفارس وتسليمه الأموال وأخذ السجائر، مرت أيام عديدة ونحن على هذه الحالة والعجيب أن أمي لم تكتشف خروجي بعد، ذات يوم أخبرت سعيد أنه مضى الكثير ونحن نوصل هذه الحقائب دون علمنا بما تحتويه ويجب أن نعلم ما بداخلها، وافقني سعيد بشدة وكأنه هو الآخر تملكه الفضول، لكن لم يكن لنا الوقت الكافي لفتحها كنا نخشى ردة فعل فارس إن سألناه ومن السائق إن فتحناها أمامه وإن سألنا ذلك الرجل الضخم، لم نتمكن من الصبر أكثر ووضعت خطة أنا وسعيد بأننا سنفتح الحقائب في المنعطف الذي يقود لبيت الرجل الضخم، وفعلنا ذلك حقا لكننا تعجبنا مما تحمله هذه الحقائب، مستطيلات ذات لون يشبه لون الشوكولاطة لكنه بلون يميل للأخضر مغلفة بغلاف شفاف، لم نكترث لما وجدنا وظننا أنه

دواء ما أو ربما أكل خاص بالكبار، فهناك مأكولات غريبة يتناولها الكبار، كل ما يهمنا الحصول على سجائرنا.

وفي يوم كنت مع سعيد بالمدرسة كان ذاك الوقت حينئذ وقت الاستراحة ذهبنا لوجهتنا المعتادة "دورة المياه" كان فارس ذاك اليوم في تلك الزاوية وحده، ألقينا التحية عليه، لم يجبنا كان مشغولا في لف سيجارته، لكنني رأيت شيئا غريبا هناك، إنه يضع نفس تلك المادة التي رأيناها في تلك الحقائب، بقيت مدهوشا وسألته قائلا:

- ما هذه؟

لم ينظر لي وأجاب قائلا :

- إنها سر السعادة.

ضحكت لعبارته هذه لم أكن أفهم ما يقصده وقلت مازحا:

- أسعدنا معك.

نظر لي أخيرا وقال:

- إنها خطرة وغالية الثمن.

تعجبت منه أكثر وقلت:

- خطرة! لم تدخنها أنت إذن وكم ثمنها؟

ضحك فارس وقال:

- خطرة لأنها تسعدك وتدمرك وغالية لأنها نادرة الوجود أو ممنوعة من البيع...

وأكمل ضاحكا:

- ثم إن هذه ليست بسيجارة عادية إنها مثل السجائر لكنها أحلى.

أدهشني بكلماته هذه ولم أكن أعلم أن كل هذا يوجد بتلك الغرامات القليلة بيده فسألته:

- وما تكون هذه إذن وما اسمها؟

- فأجابني:

"إنها المخدرات".

نظرت لسعيد نظرة ذعر متمتما:

- وقعنا بالفخ... إننا بـ "مأزق"

مضت الأيام إلى أن أصبحت تاجرا ومدمنا لها...

خلف قضبان الألم

بدا عامر اليوم مظطربا ومزاجه سيء، كم أكرهه حين يكون هكذا إنه ممل وعيند وسريع الغضب، رغم ذلك فهو قطعة من قلبي تبعث في نفس من يراه الأمان والاستقرار.. ملامحه هادئة حزينة ملتفة في غلالة من الألم الدفين وصلابة ظاهرية لا مثيل لها، توحي بالسند القوي والوفاء الدائم..

لقد اتصل بي أمس ماجد كان يبدو هادئا ولا يدعو كلامه لأي مزاح، طلب مني أن أحضر عامر ونلتقي صباحا في مقهى العم رابح وسط المدينة لأجل شيء مهم، تساءلت عن سبب ذلك فتجاهل سؤالي بأن الكلام سري للغاية ويجب أن أكون هناك أنا وعامر بحدود الساعة العاشرة، لم أشأ أن أتعمق معه فيما يجري وكنت أريد الخلاص منه، لقد توقفنا أنا وعامر عن المتاجرة معه في مجال المخدرات منذ سنة ونصف ولابد أنه يحتاجنا في مهمة ما، إننا ماهران في التخفي وفي إيصال المخدرات لأصحابها كما أن لنا وجهين بريئين لا يبدوان بكل هذا الإجرام.

بعد أن قطع ماجد الاتصال استلقيت بسريري في البيت القديم، إنني أحب هذا البيت كثيرا، لقد كانت معظم ذكرياتي به، لقد أمضينا أنا وعامر الكثير من الوقت هنا حتى أن ماجد ومجموعته كانوا يعقدون اجتماعاتهم ولقاءاتهم هنا،لم أشأ الذهاب إلى المدينة الأخرى التي انتقل لها أهلي بل إنني أرغب

بالبقاء هنا أكثر وقت ممكن، كنت أود الاتصال بعامر لإخباره أن ماجد اتصل بي لكنني علمت أن مزاجه سيء لهذا اليوم فخشيت أن أزعجه بالأمر وأعلم أنه متهور وسيأتي لبيتي الآن ويطلب مني أن نذهب له الآن، لذلك فضلت أن أخبره صباحا أو أذهب عنده قبل ذهابه للعمل، لكنني بقيت أفكر في أمر ماجد لماذا اتصل؟ وماذا يريد؟ متأكد أنه يريد تنفيذ مهمة ما، لكن ما جعلني أتساءل لماذا سيختارني أنا وعامر رغم أن له عشرات الرجال وهم أقوى منا وأدهى.

لم أنم تلك الليلة سوى سويعات قليلة، نهضت باكرا قبل صلاة الفجر كانت الساعة تشير إلى السادسة إلا ربع بقيت في مكاني أفكر، لم أنتبه للوقت الذي بقيت فيه حتى سمعت صوت الأذان، نهضت بهمة توضأت وصليت وجهزت قهوة شربتها على مضض وخرجت لأتمشى قليلا، وأنا في الشارع المكان ساكن جدا وهادئ كأنه مهجور، ضباب خفيف والجو بارد، لحسن الحظ أنني ارتديت معطفي وبينما أنا أسير حتى رن هاتفي بأن رسالة وصلتني لم أعرها اهتمامي ظنا مني أنها من شركة الاتصال برسائلهم المزعجة، لكن لا أدري ما الذي دفعني لإخراج الهاتف، لم يكن توقعي صحيحا كانت الرسالة تحمل اسم ماجد، تسمرت بمكاني وازدادت نبضات قلبي، وكأنني أشعر بالخوف،كانت الرسالة تحمل مايلي: "صباح الخير سعيد، يجب أن لا تحضر فيما بعد أنت وعامر، أخبره أنني ألغيت الأمر والآن عليكما أن تحضرا لي مئة مليون دينار في المساء أو

ستعودان لمجموعتي لقد كشف أمري وهرب مني رجالي ولم يتبق غيركما وإن أردتما أن لا أفضحكما عليكما بالمئة مليون".

لم أستوعب ما تحمله الرسالة وكررت قراءتها لمرات عديدة وأنا غير مصدق لما يقوله ماجد، لابد أنه يمازحني أو ربما يخيفني أو يختبرني، اتصلت به في الحين لثلاث مرات ولم يرد ثم قررت أن أعيد الاتصال به فيما بعد، لكن رسالة وردتني منه بعد لحظات ويقول فيها: "سعيد إنني في مشكلة كبيرة لا تدعاني أوقع بكما ساعداني لنجاتكما ولا تتصل بي إلا عندما تقررا إما المال أو عودتكما لي أو فضحكما وقضاء حياتكما في السجن"، بقيت في مكاني لدقائق أو ربما لساعات لم أكن أشعر بالوقت ولم أتحرك حتى اصطدم بي طفل وحدثني قائلا:

- أنا آسف يا عم لم أقصد.

استدرت نحوه وقلت:

- لا بأس...

بقي الصغير ينظر بي وفتحت عيناه بدرجة أوسع وحدثني قائلا:

- عمي.. اذهب لمنزلك أو لعملك إنك مريض ووجهك مصفر.

لم أكن أعلم كيف كان يبدو وجهي أو كم قضيت هناك وأنا بلا حراك، انتبهت للهاتف، الساعة تشير إلى السابعة والنصف لابد وأن ذاك الفتى كان ذاهبا للمدرسة، لم ينصرف الفتى بعد وتنبهت أنني أيضا لم أجبه فخاطبته قائلا:

- لا تهتم صغيري سأكون بخير اذهب كي لا تتأخر.

أكملت السير بخطى بطيئة وعدت لبحر الأفكار ولماجد وما أوقعنا به أنا وعامر صرخت:

- عامر أه تذكرتك ستذهب لعملك الآن ويجب أن أتصل بك.

اتصلت به لمرات عديدة وقد رد أخيرا، أخبرته أن يأتي للبيت وأن الأمر هام، وعدت أنا راكضا للبيت كي لا أتاخر عنه، ربما سيأتي ولن يجدني بالبيت ويكمل طريقه نحو عمله، وكان الأمر كما توقعت ما إن دخلت البيت وما هي إلا لحظات حتى سمعت دقا بالباب نعم إنه هو لقد جاء سريعا، فتحت الباب بسرعة وأمسكت به من ذراعه وجذبته للداخل وقدته نحو الغرفة بقي عامر مندهشا مني، ربما لمح تغير لون وجهي هو الآخر أو لعلي كنت أتصرف بغرابة، لقد كنت متعبا جدا لم أنم كثيرا ثم إن هذا البيت بارد جدا،كان صوتي مرتفعا جدا وكنت عصبيا ولم تكن لدي أدنى فكرة عما يمكن فعله وما الذي ينتظرنا مع ماجد، كان عامر هو الآخر يمر بأوقات عصبية فبعد موت والده وأخيه بتلك الحادثة أصبح أكثر صمتا وأكثر انعزالا عن العالم، انتبهت أنني تركت التلفاز مفتوحا طوال الليل، جلست مع عامر هناك وتحدثنا عما يمكن فعله حيال الأمر، لكن أفكارنا كانت سلبية ومظطربة، لقد تسبب لنا ماجد بالعديد من المشاكل وأمضينا العديد من السنوات لنتخلص منه ومن مخدراته

ثم إننا لم نعد نتناول هذه السموم إلا نادرا بعد أن أدمناها وحولنا الأمر لشرب الكحول.

بعد حديثي أنا وعامر وبعد ذهابه وعودته للعمل، بقيت بالبيت مفكرا في حل مناسب لكن كل محاولاتي باءت بالفشل، لم أجد شيئا وفكرت بكلام عامر، لن نستطيع فعل شيء سوى الاستسلام والذهاب للسجن أو العودة له والعمل معه، اتصلت بماجد لأخبره بالأمر وأخبره أننا قررنا العودة للعمل معه مؤقتا، رغم علمي أنني سأندم على فعلتي ولم أفكر حتى فيما سيفعله عامر حين يعلم بهذا، بعد اتصالي بماجد وإخباره فضلت البقاء بغرفتي لعلي أنام وما إن غفوت قليلا حتى رن الهاتف، نعم إنه عامر يتصل راودتني بعض المخاوف من أن ماجد اتصل به وأخبره وقد تشاجرا ،كان صوت عامر مختلفا عما كان عليه صباحا يبدو غاضبا أو لعل نزلة برد أصابته فتغير صوته، أخبرني إن كنت قد اتصلت بماجد أو اتصل بي، بقيت صامتا وحائرا هل سأخبره عن كل ما جرى أو أصمت وأترك الأمر حتى المساء، لم أجد ما أقوله حتى تحدث هو لحسن الحظ وقال لي أنه إذا اتصل بي أو حدث أي شيء أن أخبره وقطع الخط، لقد خلصني من كلام كثير، لكن سأخبره في المساء، عدت لسريري وغفوت من جديد.

نهضت بجسد منهك وألم حاد برأسي وشعور شديد بالدوار لابد وأنني نمت لساعات ولم أحضر البطانية لتغطية نفسي من شدة تعبي نمت دون أن أنزع حذائي، لم يكن يشغل بالي شيء

سوى عامر، لابد أنه اتصل عدة مرات أو أتى للبيت ولم يجدني، نعم كما توقعت لقد اتصل مرات عديدة وترك رسالة تحمل الآتي:

"حين تفرغ من أشغالك اتصل بي إنني أنتظرك"

عاودت الاتصال به اتفقنا أن يأتي للبيت، أخبرني أنه سيكون هنا خلال دقائق، كانت الساعة تشير إلى السادسة والنصف لابد أن المكان بالخارج مظلم ولابد أن عامر منزعج مني، نهضت لإحضار بعض القهوة لعلي أتخلص من آلام رأسي وهذا الدوار المزعج لكن الأمر لم ينجح، فلجأت لآخر قارورة خمر مخبأة هناك تحت سريري، لقد أقسمت ألا أعود للخمر لكن الأمر خارج عن السيطرة، وأنا أشرب حتى سمعت دقات بالباب، نسيت... لابد أن عامر أتى سيجدني أشرب وسيفعل بي شيئا، أعدت تلك القارورة إلى مكانها وغسلت وجهي وفتحت الباب لعامر وكنت أكاد أسقط لو لم يمسك بي، أدخلني البيت وأعادني لسريري، لابد أنني دخلت في حالة إغماء لدقائق ثم استيقظت هذا ما يحدث عندما أشرب بعد أن أتوقف لمدة، أحضر عامر معه أكلا وكنت جائعا كوني لم آكل شيئا منذ الصباح، أكلت بشراهة وذهبت للاستحمام لحسن الحظ أنني كنت أملك بعض الماء وموقدا لأسخن به الحمام والماء، كان عامر لا يزال كما وجدته صباحا محتارا ومشتتا ويفكر بأمر ما بل بأمور كثيرة وليس بأمر ماجد فحسب هذا ما أظنه، حدثته عن الأمر وعن أنني تحدثت له وفصلت له عن كل

ما جرى، لكن لم يبدر منه أي تفاعل عن الأمر وكان كل ما يفعله أن يومئ برأسه فقط، هذا يعني أننا سنعود للمخدرات من جديد، اتصلت بماجد وعامر معي ويستمع لحديثنا أخبرته أننا موافقان على العودة معه لكن الأمر سيكون مؤقتا ولن يدوم طويلا وكان رد ماجد هو الآخر مريحا إلى درجة ما وحددنا موعدا للالتقاء بمقهى العم رابح وبعدها عاد عامر للبيت وأنا بقيت في غرفتي مستلقيا وجاعلا من سقف البيت وجدرانه رفقاء لي أحدثهم تارة عن همومي وتارة عما سيحصل لي وكأنهم يسمعون حديثي...

مأسينا مستمرة

استيقظت هذا الصباح على اتصال من مدير الشركة، لقد نسيت أمره ولم أخبره أمس أنه تعذر علي الحضور للعمل رددت على اتصاله قائلا:

– صباح الخير سيد رضوان كيف الحال؟

رد قائلا:

– صباح الخير، الحمدلله، يبدو أنني أزعجتك وأيقظتك من نومك.

بدا من صوته غاضبا مني وكنت أعلم أن ذاك ما سيقوله، نهضت من سريري وعدلت من جلستي ثم قلت:

– سيد رضوان إنني مريض وأمر بأوقات صعبة، أرجوك امنحني عطلة مرضية أو عطلة لأسبوع لا أكثر.

رد بسرعة قائلا:

– ماذا؟ علطة لأسبوع أو عطلة مرضية اسمع يا عامر إن كنت تمر بأوقات سيئة أو جيدة لا يهمني أمرك أتفهم كل ما يهمني أن تأتي للعمل وتكمل المهام الموكلة لك وانس أمر العطل لست طفلا، ثم إن كنت غير قادر على القدوم أخبرني لأفصلك فالعديد ينتظرون للظفر بمكانك.

ازداد غضبي من كلامه ولم أتمكن من التحكم بنفسي فقلت:

– اسمع أيها الأبله لست طفلا حتى آخذ عطلة وعندما أريد شيئا سأفعله رغما عن أنفك ثم إنني لن أعمل عندك بعد اليوم

واعط مكاني لمن شئت وإن أردت فصلي فأنا أعلن نفسي مفصولا من الآن.

رد قائلا ببرود:

- إذن أنت مفصول وقطع الخط...

نعم لابد أنه كان ينتظر هده اللحظة منذ زمن للتخلص مني، ثم إنني لست بحاجة للعمل عنده سأبحث عن عمل أفضل منه، نهضت وجهزت نفسي وعدلت سريري، سمعت دقات بالباب.. أه نعم إنها أمي لابد أنها سمعتْ ما جرى، دخلتْ للغرفة وبدا لي أن وجهها كئيب، ألقت علي تحية صباحية وجلست على طرف السرير وجلست أنا بجانبها نظرت لي ثم قالت:

- بني... لابد أنك مريض أو أن ضغط دمك مرتفع إنك لست بحالة جيدة منذ ذاك اليوم... منذ أن...

لم تستطع أن تكمل وسالت عيناها دموعا واحتضنتني باكية وأنا في صمت لا أدري ما أفعله، مسحت عنها دموعها وقلت:

- أعلم ما تفكرين به يا أمي... غاليتي إنك تظنين أنني أصبحت هكذا منذ وفاة والدي وأخي وتظنين أنني مظطرب هكذا بسببهم وأريد الانتقام لهم...

أوقفتني قائلة:

- عامر... أنا أعلم كل شيء.

لم أفهم ما كانت تود أن تصل له أو بما تريد أن أخبرها، هذا هو أسلوب أمي عندما ترى بي تغيرا تفعل هذا لأحكي لها ما بي، لكنها أكملت قائلة:

- أعلم بكل ما يجري معك مع ذلك الرجل، الرجل ماجد.

تجمدت أعضائي وذهلت لما تقوله أمي ثم احتضنتني من جديد وأكملت بكاءها وهي تقول:

- ستوقع بنفسك أعلم أنك ستعود للعمل معه من أجل أن تقتله لقد أخبرني أبوك قبل أن يموت عنه وأخبرني عن عملك معه، وبقيت صامتة كل هذه المدة وأنا أخشى أنك ستفعل شيئا لو علمت أنني أدري بالأمر...

خرجت من البيت غير مصدق أن أمي حقا تعلم بالأمر لم أفكر بشيء سوى بكلامها حتى أن سعيدا اتصل بي وأخبرني أن نلتقي بمكان ما، لقد جلعتني أفكاري وكلمات أمي تلك شارد الذهن ولا أذكر شيئا ولا أدري هل أتصل به أم أعود للبيت، جلست بإحدى المقاهي، حاولت استعادة نفسي واستعادة أفكاري وما سأفعله اليوم، تمكنت من التذكر، اتصلت بسعيد أخبرني أنه في مقهى العم "رابح"، ذهبت حيث هو هناك وصدمتُ بما رأيت لقد كان سعيد جالسا بإحدى الطاولات وبجانبه ماجد، لم أستطع التحكم بنفسي، وبحركات لا إرادية، أقبلت راكضا نحوه.

أمسكت به وطرحته أرضا، سددت له لكمات عدة على وجهه، لم يستطع سعيد والناس الذي كانوا هناك إيقافي، توقفت فقط حين رأيت وجهه يتقاطر دما، لن يكفي هذا ليرتاح قلبي، لقد جعلني يتيما، لقد جلعني بلا أسرة، لقد تسبب بنزول دموع أمي كل ليلة، ثم إنه السبب في جعلي مجرما، نعم لقد علمني السرقة وشرب الكحول وإدمان المخدرات، لقد جلعني الأمر أبكي نعم كنت أبكي حينها وأصرخ أمام سعيد، أمام ماجد، وأمام كل الناس هناك، حتى ظن البعض منهم أنني مجنون، أمسك بي سعيد وقادني إلى منعطف قرب المقهى حيث كانت هناك حنفية، لقد مسح سعيد دموعي وغسل لي يداي من دماء ماجد وغسل وجهي حتى، ونعم الصديق إنه مثالي جدا وحنون، اشترى لي بعض المشروبات المنشطة كنت أبدو تعبا جدا وشاحب الوجه وربما بدوت حينها ضعيفا ومجنونا، إنها الذكريات من تفعل بي هذا وتجعلني أتفكك.

عدت للبيت مع سعيد وقرر أن يبقى معي ويمضي كامل يومه بالبيت معي، إنه لا يعمل يوفر له أبوه كل شهر مبلغا من المال يكفيه لسد حاجاته لذلك يمضي معظم يومه بالتجول بالمقاهي، دخلنا البيت وجلس سعيد بغرفة الاستقبال بينما ذهبت أنا أفتش عن أمي، يبدو البيت هادئا لابد أنها ذهبت عند الجيران، لكنني وجدتها بغرفتها نائمة، كم يرق قلبي لرؤية ذلك المنظر، ذهبت لأقبل جبينها ولأعدل غطاءها وقد تحطم قلبي عندما قبلت جبينها،كانت حرارة جسدها مرتفعة للغاية ولم

تكن تستطيع الحراك، بدأت بتحريكها ببعض القوة لكي تستيقظ، كانت تتمتم ببعض الكلمات ولم تكن تقوى حتى على فتح عينيها، لم أكن أدري ما أفعل، ثم تذكرت سعيد، خرجت مسرعا ثم ناديته وطلبت منه أن يبحث عن سيارة بالخارج ويحضرها لأخذ أمي للمشفى، لم أفصل له بالأمر شيئا ولم يستفسر هو وأومأ برأسه وانطلق بسرعة، إنه سعيد، سعيد الذي يفهمني من نظرات عيناي فحسب.

ملامح العشق

إن أيامنا تزداد سوءا يوما بعد يوم فبعدما جرى خلال لقائنا أمس أنا وعامر وحالتنا تزداد سوءًا،كلانا ومزاجانا في تدهور لكن يبدو أن عامر يزداد مرضا وتأثرا أكثر فبعد أن اتصلت به اليوم صباحا لعشرات المرات وبعد أن رد كان يهذي بكلمات غريبة، ظننت أنه كان ثملا، ثم إنه أعاد الاتصال بي فيما بعد وأخبرني أين سنلتقي وكأنه فقد عقله، لقد كان معي أمس حين اتصلت بماجد ثم إنني أخبرته أنني أنتظره بالمقهى، ثم احترت أكثر حين رأيته من هناك قادما نحوي وهو يركض، لكنه لم يكن ينظر لي، إنه يتوجه نحو ماجد وما إن وصل سدد عدة لكمات بوجهه ولم أفلح أنا ومن حولي في إبعاده عنه إلا بعد أن تعب، ثم إنني لا ألومه على فعل ذلك، لابد أن الذكريات من تفعل به هذا أو ربما اتصل به ماجد دون أن أعلم وقال له كلاما جارحا، وما زادني تأثرا، حين عدت مع عامر لبيته،كان البيت فارغا وكأن أمه ذهبت للسوق لاشتراء شيء ما أو لعلها نائمة، دخل عامر لإحدى الغرف وكنت أنتظره بغرفة الاستقبال، وأفكر بكل ما يجري معي ومع عامر، عقلي يفكر لإيجاد حل وقلبي يبكي عليه وعلى حالته وعلى ما وصل له، ثم إنني يجب أن ألوم نفسي، لقد كنت أنا رفيق السوء الذي أوصله إلى حالته هذه، لو أنني كنت له ناصحا أو لتجنبت أمر التدخين منذ البداية لما عرفنا فارسا ولا ماجد ولا قتل أباه وأخاه، وأنا أتنعم بأموال أبي

وألهو وكأن أمر عامر لا يعنيني، كنت سأبكي لو لم يقطع عامر حبل أفكاري بصوته مناديا:

- سعيد.. سعيد، أرجوك ابحث عن سيارة بالخارج لأخذ أمي للمشفى.

نظرت إليه وأومأت إيجابا وانطلقت للخارج، ناظرا بكل الاتجاهات لعلي أرى سيارة، لقد كان عامر يسكن بأطراف المدينة في منطقة شبه ريفية لكنه يبعد عن مدينتنا مئات الأمتار فحسب، وهذا البيت هو الثروة المتبقية مما تركه له والده.

وأخيرا لمحت هناك سيارة متجهة نحو بيت الجيران أسرعت نحوها وأوقفتها، أنزل صاحبها زجاج نافذته متعجبا من تصرفي، لم أع نظرته لي وقلت بعجل:

- يا عم إن خالتي أم عامر مريضة ولابد من أخذها للمشفى.

لبى الرجل طلبي وطلب مني الانتظار ريثما يكمل إنزال بعض المشتريات، نادى ابنته أو ربما زوجته، وبعد أن أكمل ذلك، أعاد ذلك الاسم "ليلى" تعالي معنا خالتك "سعاد" مريضة، دخلت الفتاة مسرعة للبيت وبعد لحظات عادت راكضة وهي تلبس عباءتها بعجل وتقول:

- هيا فلننطلق يا أبي.

طلب مني أبو ليلى أن أذهب لتجهيز الخالة سعاد أنا وعامر وحملها للخارج بينما سيكون هو وليلى ببيت عامر بعد أن يجهزا السيارة بوسائد وغطاء دافئ، أسرعت جريا لبيت

عامر، وجدته هناك بباب الغرفة محاولا حمل أمه ساعدته بذلك، طمأنته أنني وجدت سيارة وأنها ستكون هنا بعد قليل، بعد أن أخرجنا أم عامر "الخالة سعاد" كانت السيارة قرب الباب جلست خالتي بالمقعد الخلفي مع ليلى وجلست أنا معهما بينما جلس عامر قرب السائق "أبو ليلى".

كان يقود بسرعة نظرا لحالة خالتي التي تزداد سوءًا كل دقيقة، وصلنا للمشفى، ساعدتنا الفتاة ليلى وبعض الأطباء بإنزالها من السيارة وأسرعوا بإدخالها، كانت حرارة جسدها تزداد ارتفاعا، فحصوها جيدا ووضعوا لها حقنة لإنزال حرارتها، ثم خرجت أنا وأبو ليلى من الغرفة التي تتواجد بها خالتي سعاد وبقيت ليلى وعامر هناك بالداخل، كنت قلقا جدا على خالتي إنها تبدو مريضة جدا، كان وجهها مصفرا ولا تستطيع فتح عينيها حتى، لابد أن عامر منهار ومريض بشدة هو الآخر، لكنه كتوم أعلم هذا، لطالما فعل الكثير من أجلي دون أن يظهر لي ذرة من ذلك، لطالما تألم بداخله هناك لوحده، بل حتى أنه يخاطر بحياته أحيانا وهذا من أجلي، حين يكون صديقك نعمة، بل حين يكون حياة لك.

بقيت هناك في الانتظار، انتظار ما يقوله الأطباء عن حالة خالتي، وانتظار عامر لأطمئن عن حاله، كنت أود أن أخبر الطبيب كي يجري له بعض الفحوصات هو الآخر، لكن الوقت غير مناسب لفعل ذلك فقررت أن أَؤجل الأمر حتى نطمئن عن حال أمه، لقد تأخروا كثيرا، وقد مضت أكثر من

نصف ساعة وهم بالداخل ولم يفتح باب الغرفة بعد، يبدو أن شيئا ما حدث،كنت أود الخروج لاستنشاق بعض الهواء لأنني أكره رائحة المستشفيات هذه، ولأن قلبي لم يتحمل رؤية كل هؤلاء المرضى فبكل دقيقة بل كل ثانية يدخل فوج من المرضى أحدهم كسرت ساقه وآخر رأسه ينزف، وآخر في غيبوبة، قررت المكوث بعض الشيء ثم الدخول وإخبار عامر أنني سأخرج لدقائق...

وأنا أفكر بأمر خالتي سعاد وإذا بباب الغرفة يفتح، يخرج منه طبيب مسرع، ألحق به لأساله عما حدث لكنه يختفي يبن جمع الناس هناك، ثم تخرج ليلى ووراءها عامر يمشي متمايلا، أركض نحوه فأجد دموعه تنزل، إنه يبكي، إنها المرة الثانية التي يبكي فيها هذا اليوم، أنت محق يا صديقي، محق ولن ألومك، لابد أن قلبك تحمل كثيرا ليبقى صامدا كل هذا الوقت، لكن الدموع فضحت كل ما يختلج صدرك، ولازلت أضعف أمام عامر أضعف أمامه حين أراه ضعيفا هكذا، حين أراه منهارا مقهورا ومظلوما، ألعن نفسي وأكرهها وأتمنى الموت بدل هذا المنظر الذي أراه، كيف بي وأنا الصديق الحميم له ورئته الثالثة التي يتنفس بها أن أتركه وحيدا ومهموما؟ أليس الأجدر أن أعبر له، أن أجادله وأناقشه، أن أتشاجر معه من أجل معرفة ما يجري معه.

تمسكت بنفسي أنا الآخر من أجل ألا أبكي، إن شعور البكاء اليوم لم يغادرني، منذ رؤية عامر وخصوصا الآن، تملكتني رغبة جامحة بذلك، سأبدو غبيا إن فعلت ذلك، احتضنته ويا ليتني تمكنت من حضن كل شيء به، ليتني احتضنت داخله، احتضنت مشاعره وقلبه وعقله، كان ذلك سيريحني جدا، ضغط علي بقوة وكأنه يكلمني، كأنه يقول إن الحياة أتعبتني يا صديقي، إنني ضعيف وأنت قوتي، كأنه يريدني أن أبقى معه، لا تقلق يا صديقي فأنا معك، زادت دموعه وانهمرت على معطفي، دموع ساخنة توحي أن داخله يحترق، أن داخله مزدحم وأن الأفكار والهموم تأكل منه، لقد دام ضمه لي كثيرا من الوقت، لو لم يقاطعنا أبو ليلى بكلامه قائلا:

- هيا يا عامر هذا يكفي، تعال معي.. سنخرج قليلا لأخذ قسط من الراحة ثم نعود.

لم يتركني عامر بعد، ثم نظرت إليه وأنا أقول:

- هيا عامر سيكون كل شيء على ما يرام أنا معك.

رفع رأسه وكانت ملامحه تفضحه أكثر، لقد تجرد أمامي من ملامحه الكاذبة وظهر على حقيقته أخيرا، ظهر بحزنه وبكآبته وشحوبه، لطالما كان مظهره خادعا وعاكسا لما يحتويه من داخله، لقد كان يبتسم وبداخله عالم من الفوضى والهموم، سرنا نحو الخارج وكان أبو ليلى معنا، بقيت ليلى هناك بالداخل، لقد عادت للغرفة، أظن أنها كانت تبكي هي أيضا، لمحت ذلك عندما خَرَجتْ من الغرفة، جعلني عامر أراه وحده وهو بتلك

الحالة،كنت سأساله عما قاله الطبيب بأمر أمه ولحسن الحظ أنني لم أفعل، أدري أن ما قاله الطبيب سيء ولذلك خرج وهو بتلك الحالة، جلست معه في سيارة أبو ليلى الذي ذهب لإحضار بعض المأكولات الخفيفة.

نظرت إليه وأطلت النظر، كان واضعا رأسه على نافذة السيارة وينظر هناك للخارج، بم يفكر الآن يا ترى؟ ناديته بصوت منخفض:

- عامر...

بقي على حالته ولم يرد، لابد أنه لم يسمعني، ثم رفعت صوتي قليلا، فانتبه ونظر لي، ثم سألته:

- هل أنت بخير؟

لا أدري أي غباء هذا الذي جعلني أسأل هذا السؤال، إنني أدري أنه ليس بخير، وسيتجاوز سؤالي برده نعم، ثم أنه كان يجب علي أن أقول له كلاما لطيفا، استدار نحوي ونظر لي وعدل نفسه وقال:

- لا.. لست بخير يا سعيد...

صمت قليلا ثم أكمل:

- إنني مللت الحياة، مللت الحياة حقا.. تاجر مخدرات ثم مجرم ثم فقدان لأبي وأخي ثم الآن... ثم الآن سأفقد أمي، وربما سأفقدك أنت، لماذا؟ لماذا لا أموت أنا وأنتهي من هذه المعاناة؟ إنني عار على هذا الكوكب...

صدمني بكلامه هذا، وشعرت بغصة بقلبي وكأن سهما دخل بي، أمسكته من ذراعيه وثبت يداي وجذبته نحوي واحتضنته، لم أكن أريده أن يستمر بأي كلمة، رفع عيناه، عيناه اللتان كانتا في ذبول، تظهر تحتهما بعض الهالات، لقد كان قريبا مني هذه المرة وتمكنت من رؤيته عن قرب وكان وجهه في شحوب مرعب، لقد ذهب صفاؤه وبريقه، لم يعد عامر الذي عرفته، عامر ذو الوجه البريء والعينان العسليتان والابتسامة المشرقة التي لا تغادره، تحدثت له قائلا:

- عامر دعك من هرائك، إنك مريض ولابد أن تفحص نفسك، يبدو أنك لم تأكل شيئا، أو لم تنم جيدا...

تنهد وغير نظره مجددا نحو النافذة بعد أن نهض من أحضاني وقال:

- أي أكل وأي نوم، سعيد... إن أمي ستموت...

يخيفني عامر بكلامه الجاد ولم أتحمله وهو يعيد كلامه السابق على مسامعي، وأمسكته هذه المرة بعنف من ذراعه ونظرت به وقلت بصوت مرتفع:

- لماذا تقول هذا؟ لماذا؟

نزع يدي من ذراعه كنت أضغط عليه بشدة وقد آلمته، ثم قال:

- أجرى الطبيب فحوصات لها، ثم وجد أن نبضها ضعيف، أخد عينة من دمها وأجرى تحاليلا سريعة، وفي الأخير تبين أن أمي مريضة بالسرطان....

السرطان؟ كان هذا آخر ما قاله عامر، لم أتمالك نفسي حتى وجدت نفسي أبكي، أنا أيضا تحملت بما يكفي، تحملت كي لا يراني عامر أبكي أمامه، لكن تحدثه عن موت والدته وأنها مريضة بالسرطان، هذا الذي لا يمكن أن أتحمله وأستوعبه وأصدقه، ولا أدري ما الذي جعلني أخرج من السيارة وأتجه صوب المشفى، كنت أسير بخطوات سريعة، أسرعت نحو غرفة خالتي سعاد، أظن أن طبيبا ما منعني من الدخول لكنني دخلت، لم أكن أرى أمامي شيئا سوى صورتها،كانت هناك نائمة، نظر إلي الطبيب الذي كان هناك وطلب مني الخروج، لم أفعل ولم أهتم بما قاله بل أسرعت نحوها، أمسك بي الطبيب من جديد ومنعني من الاقتراب وقادني للخارج، سألته:

- هل هي حقا مريضة بالسرطان؟ هل ستكون بخير؟

أخبرني قائلا:

- نعم إنها مريضة بالسرطان ولا ندري هل ستكون بخير أم لا ربما سيحاول الأطباء إجراء عملية جراحية إن نجحت نجت وإن لم تنجح، سألته:

- أكمل... لو لم تنجح ماذا سيحصل؟

ليتني قطعت لساني ولم أسأل سؤالا أبلها كهذا، حتى إنني أعرف إجابته، لكن فكري كان مشلولا.

أكمل عامر وهو يقول:

- حينها سنرضى بقضاء الله وقدره.

وكانت تلك الكلمات آخر ما سمعته...

من يوقف زحف الموت؟

بعد أن خرج سعيد للبحث عن السيارة عدت وحملت أمي كانت تسير ببطء، لم تفتح عينيها وكانت تتمايل،كيف تمرض لهذا الحد ولم أعلم أنا بشيء، وقبل وصولي للباب دخل سعيد مسرعا، ساعدني في حمل أمي وأخبرني أنه وجد سيارة وأنه في طريقه إلى هنا، لقد كان سريعا جدا، لو أنه لم يحضر معي للبيت، لربما لم آخذ أمي للمشفى أو ربما لا زلت أبحث عن سيارة، ما إن خرجنا من البيت، حتى توقفت هناك سيارة زرقاء اللون أمامنا، إنها سيارة جارنا "منصور"، فتحت لنا فتاة كانت بالداخل الباب، في البداية لم أكن أعرف من تكون، صعدت أمي للسيارة واعتدلت، وعجبت لأمرهم لقد أحضروا معهم وسائدا وغطاءً، وكأنهم يدرون بما يحصل مع أمي بكل تفصيل لابد أن سعيد أخبرهم، بعد أن انطلقنا كنت بالمقعد الأمامي قرب الجار منصور، نظر لي وكأنه يلقي تحية،لم يكن لنا الوقت الكافي حتى لإلقاء تحية، وكان سعيد وأمي وتلك الفتاة بالمقعد الخلفي، استدرت نحوهم لأتأكد من أن أمي تجلس بأريحية، وذهلت حين رأيت تلك الفتاة تغطي أمي وتمسك بها بحنان ولطف، أمعنت النظر بها، لقد عرفتها أخيرا، إنها ليلى، لطالما كنت أراها مع أمي ببيتنا،كانت تأتي لمساعدتها بإعداد الطعام وتنظيف البيت وأحيانا تأتي لتبادل الحديث والحكايا، لتخليص أمي من وحدتها، نعم ليلى أجمل اقتباس من أجمل قصيدة نظمها

شاعر... تلك الفتاة السمراء صاحبة القسمات الطبيعية التي لا نظير لها وابتسامتها الحلوة وقدها الممشوق وشعرها الأسود كليل دافئ في نسمة صيف رقيقة.

بعد وصولنا للمشفى أسرعنا بإنزال أمي، ساعدنا الجار منصور في ذلك كما أقبل الأطباء مسرعين نحونا لمساعدتنا وتوجهوا بها نحو أقرب غرفة فارغة، أسرع الطبيب بفحصها وفحص درجة حرارتها ودقات قلبها، لم أكن أرى شيئا من حولي، إنني أعمى، كل ما أراه هو أمي، دوَن الطبيب بعض الملاحظات وطلب من طبيب آخر أن يحقنها ويأخذ عينات من دمها، انتبهت من حولي لأجد أن سعيد والجار منصور قد خرجا بينما بقيت ليلى هنا معي، كانت تنظر لأمي بوجه عابس وحزين يوحي أنها أيضا قلقة، جلست بمقعد هناك مفكرا في السبب الذي أوصل أمي إلى حالتها هذه، كان آخر حديث لي معها هذا الصباح، هل أكون أنا من أزعجها بتصرفي؟ أم أنها كانت قلقة لأمر ماجد؟ أم أن رأسها لم يستوعب كل هذا فانهارت؟ مهما يكن فلا شك أنها كانت تفكر بي، ثم أمعنت النظر بها، غرز الطبيب إبرة بيدها وكأنه غرزها بقلبي، أغمضت عيناي لإمساك الدموع التي كادت تنهمر، عندما فتحت عيناي وجدت أن ليلى كانت جالسة بالجهة المقابلة لي، نظرت لها لتغير نظرها باتجاه أمي، لقد ذهب كل الأطباء وبقينا نحن ثلاثتنا هنا بالغرفة فقط، نهضت من مكاني وتوجهت نحو أمي، حاولت تذكر وجهها، كيف كنا في السابق، كيف كنا معا

مجتمعين وسعداء وحياتنا خالية من كل الهموم والمشاكل، نذهب كل صباح أنا وأخي سامي للمدرسة، لنعود مساءً لتستقبلنا بقبلاتها وبوجهها البشوش الضاحك، تهتم لنا وتحرس على رعايتنا، تطعمنا بيدها ونحن بسن يسمح لنا بالأكل وحدنا، تنهض في كل وقت بالليل فقط من أجل التأكد أن غطاءنا بقي كما هو وإن تحرك تعدله، لم لا أرجع إلى الوراء قليلا فحسب، لم يكن وجهها هكذا في الأيام السابقة، رغم تجعده وملامحه إلا أنه بقي ذاك الوجه الذي لطالما أحببته، بل كيف كنا بالأمس وكيف أصبحنا اليوم.

أمسكت بيدها أحسست أن حرارتها قد انخفضت قليلا،كانت يداها لا تزالان كما هما، تلك اليدان اللتان طالما طهتا لي طعاما شهيا، أمسكتا بي حين كدت أن أسقط واحتضنتاني، شعرت برغبة شديدة بالبكاء، أظن أنني أسقطت بعض الدموع، لا أدري أهي دموع الذكريات أم دموع الندم؟ الندم على تفريطي في أمي، تفريطي بها هو ما أوصلها لهذه الحالة.

حتى سمعت صوتا من خلفي صوت أذكر أنني سمعته يوما، صوت يهمس بأذني قائلا:

- عامر.. هل أنت بخير؟

استدرت حتى أجد وجه فتاة أمامي، فتاة كنت قد رأيتها، إنها ليلى، لقد نسيت أمرها وأمر وجودها، تفكيري بأمي

أنساني في كل شيء، ولأنها بقيت صامتة منذ دخولنا للغرفة لم أنتبه، أجبت على سؤالها قائلا:

- نعم أنا بخير.

أقول هذا وأنا أمسح دموعي وأرى علامات الحيرة على وجهها،كانت تتمتم بكلمات لم أفهم معناها فختمت الحديث بقولي:

- شكرا لك ليلى.

لتتورد وجنتاها وتستدير وتعود لمقعدها.

دخل الطبيب للغرفة على عجل حاملا معه عدة أوراق ووثائق، ذهبت نحوه وسألته:

- هل وجدت شيئا وهل أمي ستكون بخير؟

أجاب:

- نعم.

وهو ينظر لأمي وينظر لتلك الأوراق،لم تكن إجابته مطمئنة وكأن شيئا ما يحصل، الخوف يتسرب لقلبي من جديد ووساوسي تقهرني، أمسكت به صارخا بوجهه:

- أجبني.

لأجده يتجاهلني من جديد ولم يعرني أي اهتمام، رفعت يدي لأصفعه ثم توقفت فجأة حين سمعت ذاك الصوت الهامس من خلفي من جديد:

- عامر.. لا تقلق أمك ستكون بخير.

إنها الكلمات التي كنت أبحث عنها لقد أراحتني وأزاحت عني كم القلق ذاك، جاءت بوقتها حقا، إنها ليلى، كدت أصفعه وأخرج أمي من هناك على الفور، هدأت من روعي وأدركت أن تهوري هذا وتسرعي لن يجلب لي سوى المتاعب، لقد ضاق صدري ومللت من دخول وخروج هؤلاء الأطباء دون كلام، لو أنني أدري أن أمي ستكون بخير سأخرج لدقائق وأعود طالما ليلى هنا معها، لكنني بقيت في حيرة، قد يحدث شيء وأنا غائب أو يريد الطبيب سؤالي عن شيء ما يتعلق بأمي ولا يجدني.

وأخيرا تكلم ذلك الطبيب، استدار نحوي ولا يزال نظره مثبتا بتلك الأوراق، طلب مني أن أعطيه بطاقة التعريف الوطنية دون اسمي بوثيقة ما وطلب اسم أمي وسنها وبعض الأمور التي تتعلق بها، وأخيرا أعطى تلك الأوراق لطبيب آخر ونظر لي بقي صامتا لبرهة ثم قال:

– عامر، هناك أمور عديدة سأخبرك بها ولا يمكن إخفاؤها عنك مادمت أنت الابن الوحيد لوالدتك لذلك أرجوك أن تكون متفهما.

فهمت من كلامه أن أمي ليست بخير ولن تكون بخير وهي في حالة سيئة، إنني أفهم الأشياء هكذا دوما، حين يصيبني شيء فإن كل شيء سيكون سلبيا ولو حدث عكس ذلك، تمالكت نفسي وأجبته:

– نعم تفضل.

أكمل قائلا:

- أعلم أن أمك تحبك وهذا شيء بديهي وأنك ابنها المدلل والوحيد، ثم إنك فعلت الصواب حين أحضرتها للمشفى لقد كانت في حالة جد سيئة...

لم أدعه ليكمل كلامه حتى أمسكت به من قميصه ودفعته نحوي قائلا بغضب:

- هيا.. قل ماذا حصل لأمي هيا...

دفعت بي كلماته هذه لأن أدخل في غضب لا حدود له، أزال يداي عنه وابتعد قليلا، لم يتغير به شيء ولم يشعر بأي غضب وأكمل قائلا:

- أخبرتك يا سيد عامر أن تتمالك نفسك، ثم كما ترى إنني لست من كان السبب في مرض أمك وأنا أسعى جاهدا لمعالجتها، إن أمك كانت تعاني من هذا المرض منذ زمن، منذ أكثر من خمس سنوات، هل تريد أن تعرف حقا مرض أمك؟

سألني هذا وكأنه لا يريد أن يكمل إجابته، أجبت:

- نعم نعم أكمل...

فأكمل قائلا:

- إن أمك تعاني من مرض السرطان.

لم أفهم ما قاله أو ما تفوه به، سألته من جديد وأنا أتلعثم غير مصدق ما يحدث وأحاول إعادة آخر ما قاله، إن أمك...

سقطت أرضا، تمنيت أن أموت حينها، تمنيت لو أنه تشاجر معي ولم يخبرني بذلك، لو أنه دعا الشرطة وأخبرهم أنني

اعتديت عليه بخشونة، لو أنني خرجت حين أردت ذلك، ولو أنه لم يكن هنا أساسا، لم أعد أشعر بشيء، ضاق تنفسي وضاق بي الكون كله وماتت أعضاء جسدي العضو تلوى الآخر، ودمرت تماما وكأن أحدهم أفرغ بي مسدسه، لكن صدقا "إن مسدس الكلمات أشد ألما من مسدس الرصاص"، أظن أن الطبيب يتكلم معي ويحاول أن يساعدني على النهوض، أشعر وكأنني أموت أو ربما قد شل جسدي تماما، بقيت على حالتي تلك مدة من الزمن، حتى حملني مجموعة من الأطباء ورشوا وجهي بقليل من الماء، توجهت نحو أمي بجسد يتمايل ويسقط تارة أنهض وتارة أبقى ملقى لدقائق،كانت نائمة وفقد وجهها الكثير من بريقه، حتى إن عظام وجهها قد برزت، بكيت بحرقة بكيت ندما واشتياقا وربما أسفا، حدثني الطبيب عن كل ما حدث مع أمي، لكن عقلي كان عاجزا عن التفكير تماما وكنت أسقط مرارا،كل ما أذكره هو أن الطبيب قال إن أمي مريضة بالسرطان وهذا يعني قرب أجلها.

خرج الطبيب لإكمال عمله وخرجت ليلى كذلك، ربما تريد منحي بعض الخصوصية أنا وأمي، لكنني لم أتحمل منظر أمي بذاك الشكل لذلك هممت بالخروج، وكنت أفقد توازني بين الحين والآخر، حين رآني سعيد بذاك الشكل والعينان تدمعان ركض نحوي وأمسكني واحتضنني ثم أخرجني وتحدثنا وسردت له أمر أمي، وصدم هو الآخر ومن شدة صدمته فقد وعيه واستفاق فيما بعد.

زوايانا الممقوتة

كنت أغسل الأواني حينها وكنت متعبة قليلا لقد سهرت بالأمس كثيرا، كنت أحدث صديقاتي عن حضورهن لحفل التخرج لذلك سهرت لوقت متأخر.

سمعت أبي بالخارج ينادي علي:

- ليلى.. ليلى.. تعالي.

خرجت مسرعة لأنني أعلم أن أبي ذهب للتسوق وسأساعده في إدخال المشتريات والأغراض، وحين فتحت الباب كان أبي مع شاب واقف قربه فوضعت شيئا فوق رأسي وخرجت، ترنح الفتى وابتعد قليلا حين رآني أخرج، أدخلت المشتريات، وبقي أبي بالخارج، لكنه ناداني من جديد وقال:

- ليلى تعالي معنا خالتك سعاد مريضة.

لبيت الطلب ودخلت مسرعة لبست عباءتي وخرجت راكضة، ثم ركبت السيارة أملا في الوصول عند خالتي سعاد خالتي سعاد، تلك المرأة الطيبة بشوشة الوجه الحنونة إنها جارتنا الأفضل من بين الجيران، لا أنكر أنني كنت أكرهها قبل وفاة زوجها وابنها لقد كانت تبدو لي متكبرة ولذلك كنت أمقتها لكن بعد وفاة زوجها وابنها معا أحسست بذنب كبير لأنني كنت أكرهها لأنني تقربت منها وكنت أساعدها في أمور البيت من غسل وطهي وترتيب وتنظيف، لم أكن أريد تركها وحدها كنت كلما كان لي وقت فراغ أذهب لبيتها لتبادل أطراف

الحديث معها، اكتشفت أنها امرأة حسنة الخلق، امرأة صبورة وتملك إرادة من حديد، خصوصا شدة صبرها على وفاة أعز شخصين بالحياة الزوج والابن، لقد كانت أما ثانية بالنسبة لي.

بعد أن انصرف ذاك الشاب راكضا نحو بيت خالتي سعاد تذكرت أنها كانت تعاني من آلام في رجليها لذلك عدت للبيت لإحضار وسائد وغطاء دافئ لعله يقيها بعضا من هذا البرد.

ركن أبي السيارة قرب بيت الخالة وأسرع بحملها مع ذاك الشاب وعامر ابنها، وضعوها بجانبي وكنت أعدل لها الغطاء ووضعت وسائدا كي تكون في وضعية مريحة أكثر، لمست جبينها فوجدت أن حرارتها مرتفعة،كنت سأكلم عامر عن وضعها وكيف حصل معها هذا، لكن الوقت لم يكن كافيا لذلك، ركب أبي السيارة وبجانبه عامر، أما ذاك الشاب فجلس قرب خالتي سعاد، وانطلق أبي بسرعة للوصول للمشفى.

وصلنا للمشفى وأنزلنا خالتي، كلا إنني أفضل أن أناديها أمي، لأنها كانت تعاملني كأمي حقا، وتوجهنا بها لأقرب غرفة من أجل فحصها، جاء مجموعة من الأطباء فحصوها بسرعة ووضعوا لها حقنة من أجل تهدئتها.

خرج أبي وذاك الشاب من الغرفة وبقيت أنا وخالتي وبقي معنا عامر، جلست بمقعد بعيد قليلا عن سريرها وكان عامر بقربها كان يبدو حزينا جدا، من حقه أن يحزن، إنها أمه، إنها الأم المثالية والأم القدوة،كنت أود أن أتحدث معه لأنني أنا أيضا قلقة لأمرها وقلبي يرتجف خوفا عليها،كنت أخشى عليها كما

أخشى على أمي وأختي، لكنني لم أجد كيف أبدأ لذلك فضلت تأجيل الأمر وانتظار ما سيقوله الأطباء،كنت أحدق بخالتي، أتذكر كيف كانت تعاملني، أتذكر كم كانت تثلج صدري بكلماتها الطيبة، صدقا إن كل شيء منها طيب، حتى لمحت عامر يلقي برأسه فوق صدر أمه ودموعه تنزل، ظننت أنه مريض، لقد كان وجهه جد شاحب ومصفر، ناديت عليه وقلت:

- عامر.. هل أنت بخير؟.

حينها حمل عامر رأسه واستدار نحوي وحدق بي لبرهة وقال بصوت متثاقل وكأنه تعب في إخراجه من حنجرته:

- نعم.. أنا بخير.

كلا يا عامر إنك كاذب إن صوتك يوحي أن الحزن قتلك وأن قلبك يتمزق على أمك، لقد ناديت على عامر من أجل أن يمسح دموعه ويتوقف عن البكاء لأنني كنت أيضا سأبكي، لكنني لم أشأ أن يراني عامر.

استدار عامر لي مجددا وأردف قائلا:

- شكرا لك ليلى.

ليلى، لقد ذكر عامر لتوه اسمي مما جعلني أخجل منه وأغير نظري، إنه من المحير أن عامر، الفتى الغامض بالنسبة لي أو فتى الليل هكذا أفضل مناداته مع نفسي طبعا يعرف اسمي لابد أن الخالة من أطلعته عن اسمي أو أنه سألها، هو غامض لدرجة أنني لم أكن أعرفه وهو الجار الأقرب لبيتنا، ورغم أنني

أقضي وقتا لا بأس به مع خالتي سعاد إلا أنني لم أكن أجده في أغلب الأحيان بالبيت لقد كان كالأشباح، يفتح الباب بسرعة يلقي تحية على أمه، لا أظنه يعرفني أو يراني لذلك لم يكن يلقي علي التحية، ثم يصعد لغرفته ويبقى هناك وأنا بدروي أتحفظ عن سؤال الخالة عن ابنها الغامض هذا، وأما عن تلقيبي له بفتى الليل، هو أنه بعد أن أصلي صلاة المغرب وأذهب لغلق نافذة غرفتي ألمحه كل يوم يخرج من البيت ويذهب لمكان ما.

دخل الطبيب حينها للغرفة على عجل حاملا معه عدة أوراق ووثائق فذهب عامر نحوه وسأله:

- هل وجدت شيئا وهل أمي ستكون بخير؟

أجاب ذاك الطبيب ببرود:

- نعم.

أمسك به عامر صارخا بوجهه:

- أجبني.

تجاهله ذاك الطبيب مجددا وكأنه يخفي شيئا عنه، لقد أخافني صمته كما أن حالة عامر مقلقة، خشيت أن يحدث شجار ويحصل شيء سيء لذلك ناديت على عامر مجددا:

- عامر.. لا تقلق أمك ستكون بخير.

شعرت أن كلماتي هدأت عامر وقد عاد للجلوس قرب أمه، وفي انتظار ما سيقوله الأطباء، تكلم ذاك الطبيب أخيرا وحدث عامر وطلب منه بعض الوثائق وتوضيح بعض الأمور بشأن أمه وأكمل حديثه مخاطبا عامر قائلا:

– عامر، هناك أمور عديدة سأخبرك بها ولا يمكن إخفاؤها عنك مادمت أنت الابن الوحيد لوالدتك لذلك أرجوك أن تكون متفهما.

لقد كنت خائفة مما سيقوله الأطباء بشأن خالتي وكلمة هذا الطبيب تزيد من خوفي، أشعر أن الأمر خطير وأنه يماطل في الإجابة كي لا يجرح عامر أو يصدمه، أحسست أن عامر كذلك قد فهم الأمر فأجابه قائلا:

– نعم تفضل.

تنهد الطبيب وأكمل قائلا:

– أعلم أن أمك تحبك وهذا شيء بديهي وأنك ابنها المدلل والوحيد، ثم إنك فعلت الصواب حين أحضرتها للمشفى لقد كانت في حالة يرثى لها...

ليمسك به عامر ويدفعه ويتكلم معه بنبرة حادة وصوت عال قائلا:

– هيا.. قل ماذا حصل لأمي هيا...

لقد كان شعوري بمحله كان الطبيب يريد أن يخبر عامر شيئا فشيئا، لكنه أكمل قائلا:

– أخبرتك يا سيد عامر أن تتمالك نفسك، ثم كما ترى إنني لست من كان السبب في مرض أمك وأنا أسعى جاهدا لمعالجتها، إن أمك كانت تعاني من هذا المرض منذ زمن، منذ أكثر من خمس سنوات، هل تريد أن تعرف حقا مرض أمك؟

صمت قليلا وهو يدون ملاحظات على أوراقه وأكمل كلامه وهو يقول:

- إن أمك تعاني من مرض السرطان.

السرطان؟ خالتي سعاد مريضة بهذا المرض؟

قلت هامسة بهذه الكلمات وأنا منصدمة ودموعي تنزل بحرقة، ليسقط عامر هو الآخر باكيا من وقع هذه الكلمات، لقد شعرت أنني سأجن، كنت أود أن أرتمي بأحضان خالتي، لكن عامر سقط، أسرع الطبيب نحوه وساعده، لكنه كان في حالة إغماء، كنت أنا أراقب الوضع ودموعي تزداد غزارة، نادى الطبيب مجموعة من رفاقه وحاولوا مساعدة عامر على النهوض وتهدئته، توجه عامر نحو أمه وتأملها، لقد كان متعبا جدا، ذلك أنه كان يفقد توازنه بين الحين والآخر، لم أتحمل الأمر كاد عقلي يخرج من رأسي أسرعت بالخروج علني أحظى ببعض الراحة وأفكر بمنطقية أكثر.

نحو حزن متجدد

لقد مرت ثلاثة أيام منذ مرض خالتي سعاد، وأظنها أسوء الأيام سواءً بحياتي أو بحياة عامر، بعد أن تمكنت خالتي أمس من فتح عينيها، كان لابد من إجراء عملية جراحية حسب ما قاله الأطباء ويجب التعجل بها، ولم يتوقف الأمر هنا فحسب يبدو أن هذه العملية ستكلف أربعين مليونا، وعامر لا يمتلك ربع هذا المبلغ حتى، وأنا الآخر لا أمتلك ربعه ولا نصفه، لقد بقي عامر مع أمه طيلة هذه الأيام الثلاثة بالمشفى، المسكين لم يأكل شيئا كذلك، أما عني فإني حين علمت بأمر العملية وبتكلفتها، أسرعت في الخروج والبحث عمن سنقترض منه المبلغ، في الحقيقة إن حلنا الوحيد وسبيل نجاتنا هو ماجد، رغم سوئه ورغم ما يحمله من قذارة، لا أظنه سيفوت هذه الفرصة، لأنه يعلم أننا باقتراضنا مالا منه فنحن مجبرون على العمل معه لتسديده، اتصلت به وقد رد في أول اتصال وحين أخبرته بكل شيء، بمرض والدة عامر ومعاناتها وبإجرائها العملية بذاك المبلغ وبحالة عامر وافق على إعطائي المبلغ، واتفقنا أن نلتقي قرب محطة الحافلات بعد ساعة، لو يعلم عامر ما فعلته سيثور غضبا وقد يرفض هذه الأموال، ولكننا مجبرون.

التقيت بماجد كما اتفقنا وقد أعطاني المبلغ، وقبل أن نفترق غمز لي وقال:

- أنا أعذركم الآن، لكن تعرف ما يجب فعله في الأيام القادمة.

أومأت له برأسي إيجابا وأكملت طريقي، أسرعت بعدها نحو المشفى لتبشير عامر أنني وجدت المبلغ المالي، وصلت المشفى وأسرعت مباشرة نحو غرفة خالتي سعاد، فوجدتها فارغة يبدو أنهم أخذوها لإجراء عمليتها، سألت هناك بعض الأطباء منهم من قال أنه لا يعلم ومنهم من قال أنها قد تجري عمليتها الجراحية في هذه الأثناء، إلا طبيب واحد قال أنها عادت للبيت، إنه لمن الغريب أن تعود للبيت وهي بتلك الحالة فجاءت برأسي فكرة واحدة خشيت حدوثها، ركضت مباشرة في اتجاه بيت عامر، وما إن وصلت وجدت تجمعا للناس حول البيت، ولم تكن ببالي حينها سوى صورة خالتي سعاد، أسرعت بدخول البيت، واتجهت صوب غرفتها،كانت راقدة هناك ووجهها مغطى، وبجانبها عامر ملقى قرب سريرها، سقطت باكيا وأنا أرتجف من هول الأمر، اتجهت نحو عامر، حاولت إيقاظه لكنه لم يستيقظ، حركته بقوة لكنه لم يستيقظ لأكتشف أنه أغمي عليه مجددا.

أقدار تخطها الوصايا

مر أسبوع على وفاة والدتي، بعد أن كنت أنا في غيبوبة ليومين، لم أتحمل أنني فقدت آخر أمل بحياتي وآخر شيء يدفعني للعيش "أمي"، ليتني مت أنا وبقيت هي، لا أعلم لم دوما يبقى من لا يستحق أن يعيش ثانية، كان سعيد بجانبي دوما، سواء يوم توفت أمي، أو يوم كنت بغيبوبتي، وقد قرر العيش معي بعد أن نقل أغراضه التي كانت ببيته القديم وأحضرها لبيتي هنا، كنا ننام حتى الظهيرة، وكانت ليلى تأتي دوما لتجهز لنا غداءنا وتذهب، وكذلك مساءً تجهز عشاءنا.

ذات يوم بينما استيقظت وتركت سعيد نائما، اغتسلت واتجهت صوب المطبخ، لأتفاجأ بليلى هناك، لقد كانت واقفة وتجمع كفيها، وكأنها تنتظر قدومي، وما إن رأتني خاطبتني قائلة:

- عامر، صباح الخير كيف حالك؟

- صباح الخير ليلى، أنا جيد ماذا عنك؟

صمتت لبرهة وأكملت:

- عامر أعلم أنه ليس من عادتي أن أبقى لهذا الوقت، لكنني بقيت اليوم لأن هناك أمرا هاما يجب أن أخبرك به.

اعتلت وجهي الحيرة وأجبتها قائلا:

- نعم ليلى تفضلي.

- عامر، لقد مضى اليوم ثلاثون يوما على وفاة والدتك، وقد تركت لي وصية كان ولابد أن أخبرك بها.

- وصية، ما هي ليلى تفضلي أخبريني.

احمر وجهها وأخبرتني بسرعة:

- لقد كنت مع والدتك بالمشفى وكانت تستيقظ بين الحين والآخر كما تعلم، وكنت أبقى معها لوحدي أحيانا بينما تخرج أنت وكنا نتحدث، وقد كانت تتكلم بصعوبة، وقد أوصتني أوصتني يا عامر أن نتزوج.

زاد احمرار وجهها وأكملت:

- وقد تركت لك رسالة بصندوقك الخشبي بخزنتك كي تتأكد.

وخرجت من البيت راكضة، أسرعت نحو غرفتي وأيقظت سعيد، بحثت في صندوقي عن أي رسالة، وجدتها فعلا، كان سعيد قد استيقظ وكعادته يتذمر لأني أيقظته، لكنه أفاق وعدل من جلسته حين أخبرته أنني سأتزوج ليلى، ضحك بصوت عال وأردف قائلا:

- ستتزوج ليلى! وكيف ذلك؟

- نعم، لقد أخبرتني ليلى أن أمي أوصتها بذلك وهذه هي الرسالة كانت قد تركتها لي.

تغيرت ملامح سعيد وخاطبني قائلا:

- هيا اقرأها.

فتحتها بسرعة وبدأت القراءة بصوت مسموع:

(السلام عليكم ورحمة الله عامر بني، هذه أنا أمك سعاد، إنني بحالة سيئة وأظن أنني لن أعيش طويلا، هذا ما أشعر به

لذلك يا بني لا تكن عنيدا، اهتم بنفسك وكذلك بشأن البيت وإياك أن تبيعه، صديقك سعيد كذلك اهتم به، ولا تنسني من دعائك ووصيتي الأكبر لك هي أنني أود منك أن تتزوج ليلى جارتنا، نعم لن تجد أحسن منها خُلقا وأخلاقا، أرجوك يا بني نفذ وصيتي أنا أعرف ما أفعله، ولا تنساني من دعائك كما أخبرتك، وإياك وأن تفرط بصلاتك، وابتعد عن كل ما عشته سابقا، أحبك يا ولدي)

كنت أقرأ كلمات أمي وكأنني أسمع صوتها بكل جملة، وأتذكر ملامح وجهها، دمعت عيناي وجلست بجانب سعيد واحتضنته بعمق، خاطبني قائلا:

- عامر لابد عليك أن تتزوجها.
- وكيف ذلك يا سعيد؟
- سنقترض المبلغ الذي ستتزوج به وترجعه أنت بعدها.

وبالحديث عن أمر الاقتراض تذكرت أمر ماجد وصرخت:

- سعيد لقد نفذ الشهر الذي أمهلنا إياه ماجد وغدا سنعود له.

بعد أن توفت أمي كان ماجد قد اتفق مع سعيد بأن يمهلنا مدة شهر كي نعود للعمل معه مجددا.

- تبا، كيف نسيت هذا، لكن أمك أوصتك بأن لا تعود له.
- وهل تودني أن أكمل بقية حياتي بالسجن.

وبعد أن تناولنا غداءنا أنا وسعيد بقينا نفكر معا في ما سنفعله بشأن ماجد هذا اللعين الذي جعل حياتنا ظلاما وبشأن وصية أمي بأن أتزوج ليلى.

لذا وبعد تفكير قررت وتوصلت أنه لابد من الرجوع لماجد، كما أنه لابد من أن أتزوج ليلى.

طعنات الغدر

صباح آخر وكعادتي أستيقظ عند السادسة وأغتسل وأتجه صوب المطبخ كي أحظى بفطور شهي مع ليلى، ولنقل زوجتي ليلى، لقد مضت ثلاث أشهر على زواجنا، فبعد أن اتخذت قراري ورجعت لماجد واقترضت منه ما يكفيني لإقامة زفافي وقد كان زفافا متواضعا وجميلا، كما أن العمل مع ماجد كان قد تغير، لقد صرت أعمل ثلاثة أيام بالأسبوع كما أن عملي يتمثل في توصيلي للمخدرات، ولا يستغرق ذلك سوى ساعة أو ساعتين مقابل أجر عالي، لكنني أذهب لوحدي على عكس ما كنت عليه في السابق، لقد أصبح سعيد كذلك يذهب لوحده، إذ أنه يتجه نحو المناطق البعيدة،كما أنني أعمل بمقهى "العم رابح"، وكانت لقاءاتي بسعيد تقل يوما بعد يوم، خصوصا وأنه رجع للعيش ببيته القديم كي يمنحني بعض الخصوصية مع زوجتي على حد قوله، ومضت الأيام على هذا النحو إلا أن جاء ذلك اليوم، بعد أن أنهيت عملي واتجهت نحو البيت، قرعت الباب كي تفتحه ليلى، قرعته مراراً لكنها لم تفتحه، فكرت أنها قد تكون بالحمام أو لعلها تصلي، انتظرت بعدها بدقائق، لكن الباب لم يفتح، اتجهت نحو النافذة وكسرت زجاجها ودخلت وجدت ليلى طريحة الفراش وبطنها تؤلمها بشدة، اتجهت بها مباشرة نحو المشفى، بعد أن تفحصها الأطباء، أتفاجأ بهم يخرجون من غرفتها والفرحة تملأ وجوههم ليبشروني أن زوجتي

حامل، ملأني الفرح بعبارتهم هذه واتجهت مباشرة صوب غرفتها لأحتضنها وقد كانت فرحتي بها جد كبيرة، ثم خرجت لأتصل بسعيد وأفرحه معي، اتصلت لمرة ومرتين وتعددت اتصالاتي ولكن لا استجابة، تذكرت أنه يعمل اليوم، لذا اتصلت بماجد بعد أن رد بعد عدة اتصالات وقد كان جد غاضب وخاطبني قائلا:

- تبا لك أنت وصديقك ليتك تموت مثله...

وقطع الاتصال

وبقيت أردد آخر ما قاله:

- ماذا؟ أموت مثل صديقي.. سعيد مات؟

بعد أن عدت بليلى للبيت وقد تحسنت بعد ما عانت من آلامها، اتجهت مباشرة نحو بيت سعيد، وقد انتظرته لساعات ولم يعد وقد وصل بي الأمر لأن أتصل بالضابط صالح كي أعرف ما حصل فهو الوحيد بعد ماجد من يعرف أين تتجه تلك المخدرات، ولكنني فوجئت بردة فعله هو الآخر، فما إن رد على اتصالي وسألته أين سعيد خاطبني بصوت يبدو عليه الغضب:

- وما شأني أنا بسعيد هذا، لا تتصل بي.

يبدو أن خطبا ما أو خللا قد حصل فليس من عادة هذين الاثنين أن يغضبا لهذا الحد.

لقد اكتشفت غضب ماجد وصالح في ذاك اليوم، مضت الأيام وبدت الحقيقة، بعد موت سعيد، أو لنقل بعد أن قتل

سعيد فقد اكتشفت الشرطة أن السيارة التي كان يركبها كان خزان الوقود فيها مثقوبا كما أن مكابحها كانت معطلة، وقد انتقما منه لأنه تعرض للتفتيش من قبل الشرطة قبلها بيوم، وقد كادوا يكتشفونه ويُفضح أمرهم، إن معظم أحزاني وأهلي الذين فقدتهم وسعيد اليوم، كلهم بسبب ماجد وصالح، أما صالح هذا فهو ضابط شرطة، وهو يعمل مع ماجد ويتلقى منه أجرا مقابل السكوت والتحفظ، أما عني فقد صار الموت رفيقا لي، أتعجب لم يأخذ من أحبهم وكأنه يراقبني، أو كأنه يستلذ بذلك.

أفق وردي

توقظني ليلى بصراخها وبكائها، الساعة تشير إلى الثانية صباحا، لابد أنه موعد ولادتها فقد اقترب زمن شهرها التاسع وهي حامل، أخرج متجها صوب بيت والدها فهو الأقرب وهو من يمتلك سيارة، ونتجه صوب المشفى، وقد بدت ليلى في حالة سيئة بعد أن ملأ صوت صراخها المشفى.

الواحدة زوالا، وقد خرج الأطباء من غرفة الولادة التي ترقد بها ليلى، ليبشروني بأن زوجتي وضعت طفلا وقد سمته "عاصم" وقد اتجهت نحو غرفتها فرحا مسرورا، ظهر على وجهها التعب وكانت تحمل ولدنا الباكي بين ذراعيها، حملته وقبلته وكنت جد فرح به، وتمنيت أن يديم الله قربنا، فقد كنا أنا وليلى نمر بأوقات جد عصيبة وقد وصل بي الأمر أن أفكر في تطليقها، فقد كنت أدخل البيت في وقت متأخر بعد أن تغير عملي، وتخلصت من ماجد وعمله النجس، وكنت أعمل في تنظيف السيارات.

اكتملت ولادة ليلى على ما يرام وقد عادت للبيت وكنت في تلك الأيام لا أعمل، بل أبقى بالبيت وأهتم بأمورها، وكان كل شيء جميلا ولطيفا، وذات يوم سمعت طرقا على الباب، وما إن فتحت الباب أمسك بي شرطيان وكبلا يدي وقاداني نحو الخارج دون أن يتركا لي فرصة كي أتكلم، واتجها بي مباشرة نحو مركز الشرطة.

في مركز الشرطة هناك أدخلاني إلى مكتب وكانت يداي لا تزالان مكبلتان وطلبا مني الانتظار، انتظرت لدقائق ثم سمعت باب المكتب يفتح وقد دخل منه الضابط صالح وكانت تبدو عليه ابتسامة شر، إنني أفضل العمل مع ماجد عقودا من الزمن ولا أفضل أن أعمل مع هذا المعتوه لشهر، لم أكن أحبه من البداية وأظن أنني سأكرهه أكثر الآن.

استند للحائط ونظر بعيدا ثم أردف قائلا:

- يبدو يا عامر أنك ستسجن قريبا وكما ترى أنت بمركز الشرطة وبأمر مني ستحمل الآن.

كنت أعلم أنه يمهد لي كي أعود للعمل معه أو أنه يحتاج شيئا فخاطبته:

- ماذا تريد؟ أعلم أنك فعلت هذا كي أعود للعمل معك.

ابتسم ابتسامة واقترب مني وقد جلس على كرسي وأكمل:

- أنت الوحيد من يفهمني يا عامر، وأنت الوحيد الذي أثق به.

قاطعته:

- أما كفاك ما فعلته بي لسنوات وما فعلته بسعيد.

يضحك ويكمل

- إن مشكلة سعيد الآن تتعلق بك، فهل تظن أنهم جلبوك إلى هنا كي نتحدث لدقائق، أنت مخطئ إنك الآن متهم بقتل صديقك وإن معي هنا أدلة كنت قد زورتها لأوقع بك.

- ماذا؟ أنا من قتلت سعيد وزورت ذلك، مهما فعلت سيكتشفونك وستفضح وسأفضح أنا بدوري كل مخططاتك.

- حينها تكون قد أمضيت سنوات بالسن وأكون أنا حينها في إجازة بأحد المدن الأوروبية.

- ماذا تريد مني؟

- توصيلة بعيدة وأخيرة فقط.

- لن أفعل.

- هل ستتحمل ثلاث سنين من حياتك بالسجن وبعيدا عن حبيبتك وابنك.

- لا دخل لك وما مقابل أن أوصل هذه التوصيلة.

- أن لا أفضحك وأن أمزق هذا الملف الذي يحمل كل هذه الأدلة.

- اجعل مقابلي ثلاثين مليونا وسأذهب الآن.

يضحك ويقول:

- موافق إن كنت تريد ثلاثين مليونا وأن أفضحك.

مهما بلغ ماجد من شر ومن نجاسة فإنه لا يكون بحجم هذا المعتوه صالح، وقد اكتشفت أنه هو رئيس المجموعة وأن ماجد ما هو سوى نائب له فحسب.

خطوات مرتحلة

يبدو أن صالح لا يحمل بقلبه رحمة، فرغم علمه أنني متزوج وأنه لا يمكنني ترك أسرتي إلا أنه مصر على ذهابي للجنوب -صحراء الجزائر-، وقد قبلت عرضه خشية أن يفضحني وتسوء سمعتي، رغم أنني لم أقتل سعيد، وأن المذنب الوحيد هو صالح نفسه، ودعت ليلى و"عاصم" وقد كانت تترجاني ألا أذهب وتخاطبني قائلة:

- حبيبي أخشى أن أُساوى، أن تُقدم لي أشياء تُعطى للجميع، أن تُقال لي كلمات تُكرّر مع غيري، أن يكون وجودي من الكماليات لا حدثاً مفصلياً، أن يُصبح الحديث مجرد واجب والمبادرة تبرئةً من عتب، ويكون الحضور باهتاً كوجوه الموتى بارداً كأيديهم، تضمحل عنه حرارة الحياة ووهج اللهفة.

فأجبت بكل حب:

- لا تقلقي حياتي فأنا أبتر الأيدي المنافقة إذا أرادت أن تطالك، والابتسامات الزائفة أن ترسل إليك، وأجيد التعامل مع الأقنعة لا الوجوه، المظاهر لا القلوب، إلا وجهك الجميل وقلبك الحنون فمشاعري نحوهم قدسية، لا ملل ولا ضجر ولا فتور...

فردت بحزم:

- كل ما يهمني الثقة، أرفض أن تَصفرّ الثقة كأوراق الخريف وتتساقط أمام ريحٍ عابرة، نُطارد الروتين كشبحٍ يؤرق مضجع

قلوبنا، كلما حاولنا الإمساك به اختفى، وحين نتجاهله يُباغت غفوة سلامنا لِيوقظ القلق.

يُفزعني ذبول الورود في صدري، يُخيفني موتها لأنّني أعلم أنها لن تعود للحياة مجدداً وأنّها لن تطلب سُقيا لذا تجد علاقاتي قليلة وعواطفي محصورة بك لأن قلباً زُجاجياً أحملهُ لا يحتمل خذلاناً أو خيبةَ حبيب.

ابتسمت في رضى عن كلامها وقلت:

- ستبقين حبيبتي للأبد.

ومضيت، اتجهت نحو العاصمة الجزائر ومن هناك إلى أقصى الجنوب -تمنراست-، ركبت الحافلة وكنت في انتظار انطلاقها، الرحلة طويلة وقد تستغرق يوما كاملا، وأنا أحمل معي ممنوعات وسأفتش وقد تكون النهاية وخيمة، لكنه أمر لابد منه، فإما المخاطرة أو قضاء سنوات في السجن.

انطلقت الحافلة وكانت تسير بسرعة لا بأس بها، وقد كنت أستمتع بالمناظر التي تطل عليها نافذتي، حل الليل سريعا وقد كان البرد شديدا، اتصلت بي ليلى للاطمئنان علي، فهي تظن أنني في مهمة عمل حسب ما قلته لها.

تعبت كثيرا، وكنت أغفو بين الحين والآخر وقد خشيت أن أنام وحقيبتي مليئة بالمخدرات، وقد كنت أحارب النوم بمشقة، وقد قاربنا على الوصول بعد أن حل الصباح وقد ظهرت خيوط الشمس في الأفق.

الساعة تشير إلى التاسعة صباحا وقد كان ذلك وقت وصولنا لوجهتنا -تمنراست-، وقد كانت الشمس حارقة قبل أن تصل الظهيرة حتى، اتجهت نحو مطعم هناك، تناولت أكلا سريعا وذهبت نحو شارع كان قد أخبرني صالح أن أنتظر فيه هناك، وأنا في الانتظار فضلت أن أتصل بليلى، اتصلت بها وقد طمأنتها أنني بخير وأنني قد وصلت لوجهتي، جاء صاحب الطلبية وقد سلمته مخدراته التي كاد أن يكتشف أمري من رجال الأمن بسببها، وقد سلمني أموالا كثيرة تفوق المئة مليون وقد فكرت في الهرب بها وأخذها، لكنني خشيت فقط على ليلى وابني، فضلت التجول وقضاء الليلة في هذه المدينة الجميلة، وقد تعرفت فيها على صديق جديد يدعى حامد وقد بدا لي صديقا جيد، لقد تقاسمنا طاولة بأحد المقاهي، وهناك دام لقاؤنا لساعات، وقد عزمني ليلة اليوم لأتناول عشائي وأبيت عنده، وافقت على ذلك، وقد تجولنا بأماكن عدة وتناولنا عشاءً طيبا، دون أن ننسى الشاي الذي أعده لي، لقد كان لذيذا بحق، ولأنني أعجبت بالمكان قررت أن أبقى يومان آخران.

فرح حامد بخبر بقائي ليومين آخرين، إنه إنسان كريم وطيب بحق، وقد جال بي مناطق عدة، مضى اليومان، وقد حان وقت رحيلي، وقد وعدت حامد بأن أعود له مجددا واحتفظت برقمه، وقبل ذهابي وعودتي فضلت أن أشرب قهوة عَلِيْ أستعيد نشاطي وأتخلص من نعاسي، بعد أن دخلت

المقهى وطلبت قهوتي، كان هناك شاب يحدق بي منذ أن دخلت، ظننت أنه سارق، لذا نزعت حقيبتي التي تحتوي على الأموال ووضعتها بين يدي، خرجت من المقهى مسرعا، لكن ذلك الشاب كان يلحق بي، توقفت لأعرف ما يريده، ثم خاطبني من بعيد قائلا:

- إن كنت تبحث عن عمل الحق بي.

كنت أعلم أنه سارق وأنه يعلم أن معي مالا، ويستدرجني كي يوقع بي، لم أهتم به وأكملت طريقي، لكنه عاد من جديد وقد أمسك بي هذه المرة من يدي، وقال أنه يبحث عن عمال أقوياء وشجعان، وأنه يرى ذلك بي ثم سألته عن هذا العمل ليجيبني:

- إن هذا العمل يتمثل في التنقيب عن الذهب وتهريبه.

حبيبي مجرم

إنني جد متعبة وابني كذلك، لابد من أننا مريضين، وعامر قد طال غيابه لما يقارب العشرين يوما، كما أنه لا يرد على اتصالاتي أو رسائلي، خشيت أنه قد ضاع بالصحراء، أو أنه مات عطشا، أو أن حادث مرور أودى بحياته، كنت أعاني أرقا بسبب تفكيري به، كما أنني كنت لا آكل إلا قليلا، وقد نحف جسدي وأصبحت أعاني من أمراض بالمعدة، ولا زلت أنتظر عامر.

الساعة تشير إلى الثانية صباحا، وقد مر شهر على اختفاء عامر وعدم رجوعه، بينما كنت أنا مستلقية وأحدق بالسقف وأفكر بعامر وبهذا الشيء الذي جعله يغيب عني وعن ابنه حتى أصدر هاتفي رنينا بأن رسالة قد وصلتني، حملت هاتفي بثقل لأرى مِن مَن تلك الرسالة يا ترى، لأنهض بسرعة وأعدل من جلستي وفرحة تتسرب لقلبي، إنها رسالة من عامر أسرعت بفتحها وقراءتها:

(زوجتي الحبيبة ليلى، أرجو أن تكوني بخير، لقد اشتقت لك جدا، وأعلم أنك محتارة بشأني، إنني أطمئنك أنني بخير،كما أبشرك أنني سأعود قريبا مع فائق حبي لك).

كنت أقرأ رسالته ودموعي تنزل وقد اختلطت مشاعري، مشاعر حب مع مشاعر حزن مع مشاعر شوق وحنين، فغياب

زوجي أرهقني فقد دام لأكثر من شهر، اتصلت به فورا، وتعددت اتصالاتي وهاتفه مغلق، أرسلت له عشرات الرسائل أخبره فيها عن حبي له، عن شوقي له، عن حالتي السيئة وعن حالة ابنه بسبب غيابه.

لم أنم تلك الليلة، وقد كنت مرتاحة جدا والفرح يغمرني لابد أن عامر سيعود قريبا، حمدت الله كثيرا ودعوته أن يحميه ويحفظه أينما كان، وبقيت كل اليوم أترقب دقاته على الباب، وكنت كلما سمعت الباب يدق ينتفض قلبي وأغرق فرحا وأظن أنه عامر، لكن أملي يخيب في كل مرة، وقد تحول اليوم ليومان واليومان لثلاث، ولأسبوع وأسبوعان وهكذا...

ذات مرة أذكر أني ذهبت لبيتنا كي أنظفه وقد قررت في ذلك اليوم أن أنظفه تنظيفا شاملا، بما في ذلك من أثاث وملابس وحديقة البيت الخارجية، كنت قد استيقظت باكرا، واتجهت نحو البيت، كان مليئا بالغبار، وكنت قد بدأت بإخراج الملابس من الخزانة، كانت الخزانة تحتوي في الأغلب على ملابس عامر، فأنا قد أخذت ملابسي لبيت أبي، كنت كلما أخرجت قميصا أو سروالا إلا وضممته لي واستنشقت رائحته وحاولت أن أتذكر متى كانت آخر مرة يلبس فيها عامر تلك الملابس، وصلت لآخر قميص بالخزانة وما إن سحبته حتى سقطت ورقة على الأرض، انحنيت لأخذها وكنت أرتجف، لقد تذكرت "خالتي سعاد" وتلك الوصية التي تركتها لعامر، لابد أنها

هي، جلست على السرير وتذكرت آخر مرة رأيت وجهها، لقد كانت إنسانة طيبة، فتحت الورقة وشرعت بالقراءة:

(مرحبا عامر، أنا ماجد، اسمع لا وقت لي ولا تتصل بي أرجوك سأبعث لك هذه الرسالة مع سعيد، خذ الطلبية للعنوان الذي سيخبرك به سعيد أيضا لقد سبق وأن ذهب هناك واحترس فالمنطقة مليئة بالأمن، وحين توصلها يمكنك الاتصال بي).

أعدت قراءة الرسالة عدة مرات ولم أفهم منها شيئا، وكنت أجزم أن ماجد هذا شخص غبي حقا، فكيف له ونحن في القرن الواحد والعشرين وهو لا يزال يتعامل بالرسائل الورقية كهذه، وهو يملك هاتفا وكذلك عامر، كما أن رسالته هذه أدخلت بنفسي شكوكا، ما هي هذه الطلبية التي تجعله يحرص على وصولها بهذا الحد، كما تجعله يحذره من الأمن، لابد أن وراء هذا شيء، ولابد أنه فائق الخطورة.

اتجهت صوب الصندوق الذي يخبئه عامر بخزانته والذي يحتوي على وثائقه، وكنت أبحث هناك، أخرجت كل الوثائق وأمضيت وقتا من البحث أظن أنه تجاوز ساعة، ووصلت لمرادي ووجدت رقم المدعو ماجد، كنت أفكر في الاتصال به مباشرة لكنني قررت تأجيل الأمر بعد أن أنهي تنظيف البيت وأثاثه وملابسه.

بعد أن أكملت تنظيف البيت، وقد استغرق مني ذلك يوما كاملا، عدت للبيت وأنا مرهقة، لقد تركت ابني عند أبي وكان يحضره لي بين الحين والآخر، وبعد تناولي للعشاء وبعد أن نام ابني أرسلت رسالة لعامر وقد قررت أن تكون آخر رسالة لأنني ما عدت أطيق هذا الغياب، أخبرته فيها كم عانيت بدونه وكم تحملت، وكم اشتقت، حينها فقط تذكرت أمر ماجد، وكنت أفكر في أن أتصل به أو أن لا أفعل، لم أسلم من فضولي ووجدتني أشكل رقمه بهاتفي، كما أنني قررت أن لا أفضح نفسي وأجعل رقمي يظهر له، لم يرد في المرة الأولى وأعدت الاتصال للمرة الثانية، وقد رد من أول رنة:

- نعم من معي؟

كان صوته خشنا وقد جعلني ذلك أشعر ببعض الخوف.

- أنا أريد طلبية.

- أي طلبية؟

كنت أفكر كيف أجعله ينطق بما أبحث عنه فأجبته:

- مثل طلبية عامر وسعيد.

- هل غشاك فيها أم ماذا؟

إنه شخص عنيد ولم يبح بشيء.

- أنا أريد المزيد.

كان يقهقه وهو يقول:

- لم أكن أعلم أن السيدات يتناولن المخدرات بهذا الحجم، حسنا كم تريدين وما هو عنوانك وكم تدفعين؟

قطعت الاتصال مباشرة وقد سقطت أرضا والدمع يجري من عيني وقشعريرة تسري بجسدي وأنا أمسك برأسي بين يداي وأتمتم عامر تاجر مخدرات.

خطوب سوداء

إني حين أفكر بما حصل لي في سنتين فقط أتعجب من خبايا الحياة، كيف تأخذ منك هذه الحياة كل أشيائك الجميلة دون أن تعوضك بشيء واحد جميل يعوض ما فاتك، ولكنني أظن أني أحاول تعويض نفسي بشيء جميل ولكنه يأتي بطريقة غير شرعية للأسف.

بعد أن مضيت مع ذلك الشاب الغريب وبعد أن أطلعني على هذا العمل الجديد -التنقيب عن الذهب-، شرعت مباشرة في قبول عرضه، فقد كنت بحاجة لعمل سريع ومربح، رغم علمي بخطورته.

صراحة كنت في حالة صراع نفسية، لم أذق طعم الراحة مذ دخلت في هذا العمل، ابتعادي عن ليلى وابني وتركهما لوحدهما، وصالح، ما إن تذكرت أمر صالح، أسرعت في إرسال أمواله عبر البريد كي أتخلص منه، وكي أطمئن أنه لن يمس أسرتي بسوء.

مر شهر على تواجدي في الصحراء وعلى دخولي لهذا العمل، وهاتفي لا يخلو من اتصالات ليلى ورسائلها، التي تحمل حبا وشوقا وعتابا وحزنا شديدا، وقد أخبرني رفقائي أن استعمال الهاتف ممنوع نظرا لخطورة الأمر، رغم ذلك قررت في أحد الليالي أن أرسل رسالة لليلى علها تطمئن وتوقف عني عتابها، وأغلقت هاتفي مباشرة، وليت ليلى تعلم أنني لم أكن

أنوي خوض كل هذه الأعمال، لكنني أفعل كل هذا من أجلها ومن أجل ابني، فقد كنت أعلم كم هو مربح هذا العمل لذا قررت أن أعمل، علي أتخلص من ديوني وبذلك أوفر لهما حماية من شر ماجد وصالح.

مضت مئة وخمس أيام على تواجدي في الصحراء وقد جنيت مالا وفيرا، لذا قررت العودة لبيتي أخيرا، لقد اشتقت لليلى وابني وكذا أبيها، حتى القهوة التي يحضرها "العم رابح" بمقهاه اشتقتها، وقبل عودتي تذكرت رفيقي حامد وقررت هذه المرة أن أعزمه أنا، التقينا بأحد المقاهي بعد ساعة، وقد استقبلني بحرارة، وتعجب من عودتي ومن ميل لون بشرتي نحو السمرة، لم أخبره أنني لم أغادر الصحراء من وقت التقائي به تجاوزا لأسئلته، وأخبرته أنني في مهمة عمل فحسب.

بعد أن أمضيت يومان مع حامد، اتجهت نحو المحطة لأعود لمدينتي أخيرا، انطلقت الحافلة، وكنت كلما رأيت منظرا وتذكرته، أتذكر اليوم الذي كنت في طريقي قادما نحو تمنراست، كيف كان الخوف يستعمر قلبي، وكيف كنت غريبا، أتعجب كيف تغيرت الأحوال، كيف دخلت فقيرا وها أنا أخرج غنيا، كيف دخلت مرتجفا واليوم أخرج مطمئنا.

بعد أن أمضيت قرابة يوم بالطريق، وصلت أخيرا، حين نزلت من الحافلة، كنت أود أن أصرخ أو ربما أود أن أبكي، كنت أود الركض نحو بيتي وفقط.

أخذت سيارة أجرة، وفي طريقي لبيتي كنت أتذكر ليلى وأتذكر حديثها حين كنت أدخل بوقت متأخر، كيف كانت تتصرف معي وتغضب مني وتعاتبني، كلما تذكرت ليلى تخرج مني ابتسامة عفوية لا إرادية، كنت أعلم أنه ما إن أدخل البيت ستحتضنني وقد تضربني وتعاتبني كثيرا وقد تهجرني لأيام، لذا كنت قد جهزت لها عديد الهدايا، وصلت البيت بعد عذاب كبير مع سفري، جهزت نفسي وجهزت ابتسامة، طرقت طرقة خفيفة على الباب وانتظرت للحظات، لم يفتح بعد وأعدت الطرق مجددا وانتظرت للحظات حتى سمعت وقع أقدام بالداخل يتجه نحو الباب، حينها فتح، إنها ليلى، احتضنتها مباشرة وحملتها بين يدي، احتضنتها والدمع من عيني ينزل، دموع فرح وشوق وكذا ندم، لم أفلتها أبدا، وهي الأخرى كانت تبكي بشدة، بعدها دخلنا البيت وأكملنا حديثنا وقد لاحظت أنها نحفت جدا، وأن عيناها يبدوان جد متعبتان، يبدو أنها كانت تقضي معظم وقتها في البكاء، وألقيت نظرة على ابني الذي كان نائما بسريره، جهزت لي ليلى عشاءً، وما لاحظته عليها أنها أصبحت أكثر صمتاً، رجحت الأمر في أنها لا تود لي المزيد من التعب لأنها تعلم أنني تعبت من السفر.

لقد قضيت ليلة أمس كلها مستيقظا، خصوصا وأن ليلى أخبرتني أنها لن تنام بجانبي وأنها تفضل النوم بغرفة أخرى، كنت أعلم أنها غاضبة مني بشدة، ولها كل الحق على كل حال، وكنت أفكر بها كل الوقت.

الساعة تشير إلى السادسة والنصف صباحا وأنا لم أستطع النوم، لذا قررت الخروج لجلب إفطار الصباح والعودة سريعا أخذت حماما قصيرا وغيرت ثيابي وفي طريقي نحو الخروج وما إن فتحت باب المنزل، فتحت ليلى باب غرفتها وخاطبتني:

- ماذا يا سيد عامر هل تود الهرب مجددا؟

كلماتها جعلتني أتسمر بمكاني، استدرت نحوها متعجبا وأنا أردد:

- سيد عامر؟

- نعم السيد عامر وأنت محظوظ لأنني أضفت كلمة "السيد".

إنها تخاطبني كما لو أنني شخص غريب، لكنني أعرفها إنها تفعل هذا حين تود الدخول بموضوع ما أو حين أزعجها فهي تفعل ذلك.

- كفاك يا زوجتي ماذا هناك؟

تحدق بعيناي لدرجة أنها تفزعني.

- عامر لي منك طلب أخير.

- هه طلب أخير لم حبيبتي هل سأموت اطلبي ما شئت وإن كان طلبك أنني لن أتخلى عنك فأنا أقسم لك بذلك.

تسيل الدموع من عينيها وهي تقول:

- لا أريدك عامر لا أريدك أنت مجرم طلقني طلقني.

فراق الروح

هاهي حياتي تتحطم أمام عيناي، فبعد كل هذا تبين أنني تزوجت مجرما نعم، ولابد أنه ذهب نحو الصحراء كي يكمل إجرامه هناك، لكم أتعبني الأمر، لم أتقبل فكرة أن عامر حقا مجرم، فرغم أنه لا يبالي بأمري أحيانا وأنه لا يهتم وأنه يطيل غيابه عني، لكنه يحبني ولم يظلمني يوما أو يتعدى علي أو يتعدى حدوده معي، رغم كل هذا فهو يبقى مجرما وتاجرا للمخدرات.

كنت أنتظر عودته كل يوم وبعد صراعاتي فقد قررت الانفصال عنه، وبداية حياتي من جديد، وقد طال انتظاري حتى جاء اليوم الذي عاد فيه عامر، كانت طرقاته خفيفة، وكنت أستطيع تمييزها من بين كل الطرقات، ركضت نحو الباب وأنا أبكي، فقد اشتقته صراحة، اشتقته رغم أنه سيء، واحتضنته مباشرة.

جهزت له عشاءه واتجهت نحو غرفة أخرى، لم أكن أنوي قط أن أراه أو أرى عيناه، فأنا أعلم أنني سأنهار أمامه، وقررت أن أؤجل مصارحتي له ليوم الغد.

كنت مستيقظة منذ الخامسة صباحا في انتظار استيقاظ عامر كي أصارحه وأخبره بكل شيء، بقيت ساعة ونصف وأنا بمكاني في انتظار ذلك، وما إن أحسست أنه سيخرج من

البيت، أسرعت بالخروج إليه وحدثته بشكل بارد جدا، وفي الأخير أخبرته بأن يطلقني، كنت جد منهارة وقد سقطت أرضا.

يبدو أنني كنت نائمة، ما إن فتحت عيناي وجدت نفسي بسريري وقرب النافذة هناك يقف عامرا حاملا ابننا عاصم يلاعبه، ابتسمت لما رأيته وكانت دموعي تتساقط بغزارة، لم أكن أريد لهذا أن يحدث، دوما ما كنت أحلم أن نؤسس أسرة ونعيش بسعادة، لم أكن أنوي أن أعذب عاصم وأجعله يعيش دون أب لكن أظن أنه من المستحسن أن يعيش دون أب على أن يعيش مع أب مجرم، انتبه عامر لاستيقاظي وقد ركض نحوي حين رأى دموعي تنزل وأمسك بيدي وسألني:

- ليلى هل أنت بخير؟

لم أكن أود أن أحدثه رغم الحب الذي أحمله له لكنني أصبحت أشعر نحوه بكره شديد.

- لست بخير.

- يحاول أن يحملني ليأخذني للمشفى لكنني أرفض وأخاطبه:

- عامر أخبرني، أخبرني ماذا كان ينقصك معي، لم خدعتني هكذا وحطمتني؟

- ماذا؟ أنا خدعتك؟

تزداد دموعي غزارة:

– نعم، لقد كنت تاجر مخدرات، لم يكن عليك أن تتزوجني ما دمت تحمل كل هذا الشر، ألم تكن تعلم أنك ستحطم حياتي؟

يفلت عامر يدي ويمسح بعض الدموع من عينيه، يتجه نحو النافذة:

– ليلى، لا أعلم كيف عرفت أنني كنت تاجر مخدرات، ولا أريد أن أعرف، لكنك لا تعلمين، دعيني أخبرك بكل شيء، لم أدخل في عالم المخدرات بإرادتي، ولو تعلمين أني فقدت أبي وأمي وأخي وسعيد كلهم بسبب هذه المخدرات، نعم بسببها، وها أنا اليوم سأفقدك أنت وابني بسببها، لكنني أقسم لك أنني توقفت عن كل شيء منذ مات والدي وأخي في ذلك الحادث...

– هل أنت من قتلت والدك وأخاك وأمك وسعيد؟

– دعيني أكمل لك لم أقتلهم، ماجد ذاك الذي كنت أعمل معه هو من قتل والدي وأخي وسعيد.

تذكرت ماجد الذي اتصلت به، فتجمدت بمكاني:

– لو كان ما تقوله صحيحا لماذا لم ترفع ضده دعوة قضائية وتدخله السجن؟

استدار عامر نحوي وبدا أكثر جدية.

– لو كان الأمر بهذه البساطة لفعلت، لكن ماجد يعرف ضابطا في الشرطة اسمه صالح وهو صديقه ويعينه في كل شيء،

ضف إلى ذلك فأنا لا أملك دليلا قاطعا على أن ماجد هو القاتل.

- هل ذهبت للصحراء من أجل المخدرات؟

- هددني الضابط صالح بالسجن وبإلحاق الضرر بك أنت وابني لذلك ذهبت لتسليم طلبية فقط.

نهضت نحو عامر واحتضنته بشدة وهمست بأذنه أنني أحبه وأن السبيل الوحيد لحمايتنا أنا وابنه هو أن يطلقني.

- حسنا ليلى اذهبي أنت طالق.

لعنة

أجل، يبدو أنني مصاب بلعنة الفقد، أولا أبي وأخي معا، ثم أمي الغالية، وسعيد رفيقي وصديقي المقرب، وها أنا اليوم أفقد زوجتي وابني معا، لا أعلم لم يختار هذا القدر هؤلاء المقربين من حولي ولم يخترني يوما، لطالما تمنيت المرض حد الموت، وتمنيت الموت، تمنيت أن أتعذب عن كل ما فعلته وأموت، لكن يبدو أن كل ما تمنيته ذهب لمن هم أقرب، صحيح يا ليلى أنا سيء، وبي عيوب كثيرة، لكنني أحبك ولازلت كذلك، ولكنني أدركت شيئا، أن كل ما يأتي بحرام سيزول عاجلا أم آجلا، لذا قررت اليوم أن أسلم نفسي للشرطة تكفيرا عن كل ما فعلته.

مهما قلتُ من كلام أظنّه مواسٍ إلا أنني حتمًا أدركتُ أن قمّة الضعف والهشاشة أن نقول لأحدهم: أنا معك.

طينٌ يأوي إلى طين، كل يوم أعي أكثر أن في القلب شعثاً لا يلمّه إلا الله، وفي الفؤاد جرحٌ لا يطببه إلا الله، وفي الحلق حديثٌ لا يسمعه إلا الله...

لا حنان والدين ولا مواساة رفقه ولا قُرب إخوة ولا التمام أصحاب بقادر على جبر كسرٍ أو سدّ ظُلمة عدا الله، الله وحده الذي يفعل هذا.

أدركتُ كم نكون كاذبين إن قلنا لأحدهم أننا باقون بالجوار وأننا لن نغيب...

لا أحد سوى الله الذي لا يغيب حين تنام عيون الأصحاب وتغفو أهداب الأحبة عن جرح طفيف، طفيف جداً لكن لذعته موجعة...

أدركتُ القوّة التي تكتنزها مقولة: الله معك.. الله معك.

يتبع...

تمت.